14 me Année No. 679

Lundi—8—7—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٧٩ « القاهرة فى يوم الإثنين ٩ شعبان سنة ١٣٦٥ — ٨ يوليو سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

بين الالهام والحكمة !

للاستاذ عباس محمود العقاد

نقلنا عن الجماعة الإسلامية فى لاهور أنهم يعدون حضرة مرزا غلام أحمد القادياني مجدد القرن الرابع عشر ، ويثبتون أنه ما ادعى النبوة قط كما قال بكلامه : « إنني لا أدعى النبوة . وكل ما أدعيه أنني محدث ، وأن معنى المحدث هو الذى يسمع كلام الله . كلا . ما أنا مدع للنبوة ، وما مدعى النبوة عندى إلا خارج على الدين ، وإنما يكذب على الذين يحسبونني من أولئك المدعين » .

وقد شاءت المطبعة أن تضبط « المحدِّث » بكسر الدال ، ولا أدرى كيف وقع ذلك ؛ لأن الكلمة التى تليها تفسرها وتمنع أن تكون على صيغة اسم الفاعل ، إذ كان الذى يسمع كلام الله هو المحدث بصيغة اسم المفعول . وإنما المحدث بكسر الدال هو الذى يتكلم وليس هو الذى يسمع الكلام .

ولهذا أصاب الأستاذ « السهمى » حين ردها إلى التطبيع ، وأشار إلى تفسير المحدث فقال : « جاء فى الحديث تفسيره أنهم هم الملهمون ، والملهم هو الذى يلقى فى نفسه الشىء فيخبر به حدسا وفراسة ، وهو نوع يختص به الله من عباده الذين اصطفى مثل عمر ، كأنهم حُدثوا بشىء فقالوه ... » .

ولكن المسألة كبرت بعد ذلك ، لأن المراد أن يكون هناك خطأ ينسب إلى العقاد على ما يظهر . فكتب الأستاذ الطنطاوى يقول إن السهمى لم يصحح الخطأ فى تفسير العقاد ... فقد ذكر أن المحدث هو الذى يسمع كلام الله . مع أن الذى قالوه فى المحدث أنه الملهم ... » .

ثم كبرت مرة أخرى فقال كاتب بتوقيع منصف يخاطب الأستاذ الطنطاوى : « لو أعاد الأستاذ الطنطاوى قراءة ما كتبه السهمى لوجده قد صحح الكلمة وتفسيرها بما نقله عن كتاب النهاية لابن الأثير ... » .

فعجبت لهذا التصحيح فى غير موضع للتصحيح .

وعجبت لتسمية هذا التصحيح تصحيحا لتفسيرى أنا ، مع أننى أروى عن القادياني فيما أقول .

فتصحيح التفسير كلمتان اثنتان ليس فيهما حرف واحد صحيح ؛ لأنه لا تفسير لى أولا فى تلك الكلمة المنقولة ، ولأنه لا تصحيح هناك ولا موجب للتصحيح على وجه من الوجوه .

ولماذا يخطىء الذى يقول إن المحدث بفتح الدال هو الذى يسمع كلام الله ؟

إن المحدث لغة هو الذى تتحدث إليه ، وليس هذا هو المعنى المقصود بالكلمة فى الحديث المنسوب إلى النبى عليه السلام ، إذ لو كان هذا هو المعنى المقصود بها لكان كل إنسان من خلق الله محدثا بغير استثناء . ولم يكن ذلك شأن عمر بن الخطاب وحده أو شأن أمثاله من الملهمين . فما من أحد إلا وقد تحدث إليه أحد فهو محدث بهذا المعنى « اللغوى » الذى لا تمييز فيه .

فالمحدث المقصود إذن هو الذى يستمع حديثا من غير الناس أو يستمع حديثا من عالم الغيب . وكل حديث من عالم الغيب فهو إما حديث من وحى الله وملائكته أو حديث من وحى إبليس وشياطينه . ولا تحتمل الكلمة معنى غير هذين المعنيين ، بل لا تحتمل إلا معنى واحدا حين يكون الموصوف رجلا من القديسين وطلاب القداسة ، وهو الاستماع إلى وحى الله ، أو تلقى الإلهام من الله ، ولا فرق بين القول بهذا أو القول بذاك .

فأين هو التصحيح إذن فى التفسير كائنا من كان صاحب الكلام المفسر ؟

ولماذا قال النبى عليه السلام « محدث » ولم يقل « ملهم » إذا كان من الخطأ أن نقول إن المحدث هو الذى يتلقى الحديث من عالم الغيب !

على أننى لم أنس الإلهام فى المقال نفسه لأننى ختمته بتلخيص كلام القاديانى حيث يقول : « إن الإلهام درجات تبدأ بالحدس الصادق وتنتهى بعين اليقين وهو أعلى مراتب الملهمين ، وإنه من الخطأ أن نخلط بين الإلهام الفنى والإلهام الدينى ، لأن الإلهام الفنى قد يكون فى الشر كما يكون فى الخير ، وقد يقال إن اللص وهو يحاول سرقة المكان سنحت له خاطرة ملهمة لتيسير السرقة ثم لتيسير الهرب من الحراس ، وليس هذا من الإلهام الربانى فى شىء ، وإنما يكون إلهام الله فى سبيل الحقائق العليا والكشف عن الأسرار الروحية ، والنفاذ إلى لباب الخلق وبواطن الحكمة الإلهية ، وهذه منزلة يرتقى إليها طلاب الوصول إلى الله ، ومنهم ميرزا أحمد القاديانى فى رأيه وآراء مريديه ؟ » .

فإذا كانت مادة « حدث » لا تقبل تفسيرا فى المصطلح المقصود غير سماع الحديث من عالم الغيب ، وكان الإلهام من المعانى التى ذكرناها فى هذا السياق ، فأين موضع التصحيح ، وأين موضع التنبيه مرة بعد مرة إلى التصحيح ؟ وهل حصل أولم يحصل ولا يزال فى حاجة إلى تحصيل ؟

إن « المحدث » بفتح الدال لا تحتمل معنى واحدا حين يوصف بها الرجل الصالح غير سماع الحديث من وحى الله ، وإنما الإلهام هو تفسير لهذا التحديث وليس هو بالتصحيح ، فليس الإلهام إلا أن تتلقى إشارة من الله أو من عالم الغيب ، ومتى كانت المادة مادة « الحديث » فالإشارة المقصودة هى الحديث أو ما فيه معنى الحديث ، وإلا لكانت التخطئة لاستخدام الكلمة فى هذا الموضع وليست للتفسير والتوضيح .

***

ومن طرائف هذه التصحيحات « تصحيحة » أخرى وقفنا عليها فى رسالة عن « عبد الله فكرى » للأستاذ محمد عبد الغنى حسن وصلت إلى منذ أسابيع .

فنحن نعتقد أن عبد الله فكرى باشا رحمه الله كان من أنبغ كتاب الدواوين فى عصره ، وقد كتبنا عن هذه المدرسة فى مقالاتنا عن شعراء القرن التاسع عشر ، فقلنا إن أشياع تلك المدرسة كانوا فى تلك الفترة كثيرين ثم قلنا : « إن الذين بلغوا منهم جهارة الشأن قليلون ونريد جهارة الشأن فى المنصب كما نريدها فى الأدب ، فإن قليلا من الديوانيين من ضارع عبد الله باشا فكرى فى صحة اللغة ، وبراعة التركيب ، وسلامة الفهم والتفكير » .

أما الشعر فرأينا فى الرجل أنه لم يكن من كبار الشعراء و « أن قصائده فى الحكمة هى ألصق بوصايا المتأخرين ونصائحهم منها بالحكم المطبوعة التى كانت تتخلل قصائد الشعراء عفوا فى أدب الجاهلية والخضرمة وفحول القرن الثالث والقرن الرابع . فهى بكلام المعلمين أشبه منها بكلام الشعراء ، وبوصايا الآباء المحنكين أشبه منها بالخبرة المطبوعة التى تعبر عنها قرائح أهل الفنون ، ومن ذلك قصيدته الرائية التى يقول فيها :

إذا نام غر فى دجى الليل فاسهر وقم للمعالى والعوالى وشمر

ثم قلنا : « فهذه وأشباهها نصائح معلم وليست وحى شاعر ، ولا نعرف بين كبار الشعراء فى العالم كله واحدا صرف إليها شعره وجعلها من أغراض فنه » .

وهذا كلام فى رأى الأستاذ عبد الغنى يحتاج إلى تصحيح لأنه لم يفهمه ولم يحاول فهمه ، بل حاول تصحيحه ليكون من المصححين ولا يكون من الفاهمين .

فهو « أولا » يسأل مستهولا : « ما دخل كبار الشعراء فى العالم كله فى ميدان هو بشعراء العربية أشبه ؟ » ثم يقول « لقد نظم كثير من شعراء العربية مثل هذه القصيدة الفكرية فى

عصور مختلفة فما حط ذلك من شاعريتهم . ولقد أوردت أبياتا من قصيدة ابن سعيد المغربى تزكية لقضية أرى من الحق أن أدافع عنها . فإذا احتج محتج بأن المغربى من شعراء العصور المتأخرة نسبيا ، فإن الجواب عندنا حاضر عتيد ، وهو أن بشار ابن برد من شعراء القرن الثانى ترك لنا أبياتا فى المواعظ والحكم فيها كثير من وحى الشاعر »

وهو « ثانيا » يقول ليصحح لا ليفهم « إن الحكمة سواء لبست ثوب النصيحة والموعظة أو ثوب الحكمة المطبوعة ليس من الضرورى أن تكون وحيا شعريا . ولقد فرق النقاد قديما بين الشاعر والحكيم حتى قالوا إن المتنبى وأبا تمام حكيمان والشاعر البحترى . فالمقابلة بين نصائح المعلم ووحى الشاعر هى مقابلة فى غير موضعها ولا بابها . وقد يكون المعترض على حق لو أنه قابل بين نصائح المعلم وحكمة الحكيم »

هكذا قلنا مصحِّحين بفتح الحاء .

وهكذا قال السيد عبد الغنى مصححين بكسر الحاء .

ويؤخذ من هذا وذاك بالبداهة أن التصحيح أيسر من الفهم الصحيح بكثير ، وأن السيد عبد الغنى يفضل « أن يصحح » على « أن يفهم » ولا جناح عليه فى تفضيلاته وتصحيحاته ، لأن الإنسان معذور فى هذه الدنيا إذا هو عدل عن جانب العناء إلى جانب الرخاء .

ومن ثم وجب عليه أن يصحح بكسر الحاء ووجب علينا أن نصحح بفتح الحاء لأنه لا شأن لكبار الشعراء فى الدنيا بتحقيق الملكة الشعرية وتمحيص الآداب العربية ؛ فإن كبار الشعراء شىء ، والآداب العربية شىء آخر لا يتصل به ، ولا يستدل به عليه .

ووجب عليه أن يصحح بكسر الحاء ، ووجب علينا أن نصحح بفتح الحاء إذا أنكرنا على أحد أن يكون شاعرا مطبوعا فى أغراض الحكمة ، بعد أن قال بشار بن برد فى تلك الأغراض ما قال :

ووجب عليه أن يصحح بكسر الحاء ، ووجب علينا أن نصحح بفتح الحاء إذا قلنا إن الملكة الشعرية غير المنظومات الحكمية ولم نقل إن التعليم غير حكمة الحكيم .

وقياسا على ذلك قد أصبحنا مصححين ناجحين ، فنقول وعلى الله القبول : إن أشعر الشعراء طرا وأحكم الحكماء شعرا هو السيد أبو الفتح على بن محمد البستى حيث قال :

زيادة المرء فى دنياه نقصان ... وربحه غير محض الخير فقدان
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وحيث قال :

الدهر خداعة خلوب ... وصفوه بالقذى مشوب
وأكثر الناس فاعتزلهم ... قوالب ما لها قلوب
فلا تغرنك الليالى ... وبرقها الخلب الكذوب
ففى قفا أمنها كروب ... وفى حشا سلمها حروب

وأنه كان ينثر فى الحكمة كما ينظم فلا تعوزه القافية ولا التحسين وإن أعوزته التفاعيل والموازين . ومن ذلك أنه قال : « حد العفاف الرضى بالكفاف » وأنه قال : « من سعادة جدك وقوفك عند حدك » وأنه قال : « المنية تضحك من الأمنية » وأنه قال : « من أصلح فاسده أرغم حاسده » وأنه قال : « إذا بقى ما فاتك فلا تأس على ما فاتك » . فلا جرم كان أشعر الشعراء وأحكم الحكماء ، وحق له أن يقول فى شمم وإباء وعزة وخيلاء :

يقولون ذكر المرء يحيا بنسله ... وليس له ذكر إذا لم يكن نسل
فقلت لهم نسلى بدائع حكمتى ... فإن فاتنا نسل فإنا بها نسلو

نعم وأصبحنا مصححين ناجحين غير فاهمين ولا متفهمين ، لأننا رجعنا إلى الفوائد الفكرية ، فوجدنا فيها هذه النصائح الحكمية : « وينبغى للولد أن لا يدخل المحل الذى تكون أمه واضعة فيه المأكولات مثل العسل والسمن والفاكهة وغير ذلك إلا بإذنها ، ولا يمد يده لشىء يرفعه من مكانه إلا بعلمها ، فإنه يتعب والدته المشفقة اللينة القلب عندما تطلب ذلك الشىء ولا تجده . فليحذر غاية الحذر من كل ما يؤدى إلى تعبها وتغير قلبها »

فلما رجعنا إلى الفوائد الفكرية ووجدنا فيها هذه النصائح الحكمية ، قلنا هى ملكة شعرية لا تعوزها غير الأوزان العروضية لأنها تنظم فى اللغة العربية ، ولا تنظم بالإفرنجية فى اللغات الأجنبية ، وكله عند العرب صابون ، كما يقول المصححون الذين يصححون ولا يفهمون ، بل كل قول مليح ، إذا عجز الإنسان عن الفهم وقدر على التصحيح .

عباس محمود العقاد

من صميم الحياة :

وحي الشيطان ... !

للأستاذ علي الطنطاوي

[على أرباب الأقلام أن يوقظوا النيام وليس عليهم أن يحيوا الموتى . .] علي

وهذه (أيضاً) قصة من قصص الحياة ، (ألفتها) و (مثلتها) على مسرحها ، وهي قصة واقعة أعرف زمانها ومكانها وأشخاصها ، ولكني لن أصف شيئاً من ذلك ولا أشير إليه ، لأني لا أريد أن أسوء أحداً ولا أن أعرّض به ، إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت ، وما في التعريض بالناس نفع للقراء ولا لي وما أكتب تاريخاً إنما أسرد قصة ...

***

وقعت هذه القصة في بلد من بلدان هذا الشرق العربي الذي يقف اليوم حائراً في مجمع الطرق ، لا يدري أين يسلك ولا إلى أين يتجه ، والذي يعيش عيشة تحكي الثوب المرقّع ، فيها شيء من الجاهلية وشيء من العصور الاسلامية الأولى ، وشيء من عصر الانحطاط ، وشيء من فرنسا ومن انكلترا ومن روسيا ولكنه لا يكاد يأخذ من كل (شيء) إلا أسوأ ما فيه .

وكان مما أخذ أهل ذلك البلد عن أمريكا ، أنهم عملوا من بناتهم في المدارس مثل المجندات فيها ، وما جندت أمريكا المجندات في هذه الحرب إلا (للترفيه ...) عن الجنود ، فممّن نريد أن (نرفه ...) نحن ؟!

وانتشرت هذه البدعة في مدارس البنات حتى بلغت هذه المدرسة ، وأراد القائمون عليها إعداد هذا اللباس العسكري للطالبات ، ولم يكن بدّ من الاستعانة بخياط فبحثوا حتى وجدوا خياطاً أخبروهم أنه رجل أمين صاحب خلق متين ؛ وجاءوا به ليقيس أجساد الطالبات ، وجعلوا يدخلونهن عليه واحدة بعد واحدة ، وهو ماض في عمله ، يغض من بصره إلا عما لا بدّ من رؤيته ، ويترفق في جسّه ومسّه ، إبقاء على طيب الذكر ، وحرصاً على صناعته ، ولعنة الله عليها من صناعة ، أن يخيط الرجل ثياب النساء ، ولعن كل من يرضى بها . ولبث كذلك حتى دخلت هذه الفتاة ، وكانت بنت ست عشرة كاعبا غِرّة مكلثمة(١) بيضاء ذات غضاضة وبضاضة وخَفَر ، من رآها رأى ملامح طفلة حلوة فتانة بطهرها وجمالها ، في وجه خَوْد عذراء ، على جسم راقصة مفتّنة ، في ثياب عروس ... فلما رآها وقام للقياس ... ومدّ يده إليها أحسّ بقلبه يجب وجبانا منكراً ، وبأنفاسه تتلاحق حتى كاد يدركه البُهر ، ولم يكن قد أصابه ذلك من قبل ، وقد (طالما) رأى فتيات أجمل منها وأبهى وقمن أمامه بالغلائل ومسّهن وقاسهن ، فما صنعن به مثل هذا ، وما كان تقياً ولا عفيفاً ، ولا يمتهن هذه المهنة رجل ويخيط للنساء ويبقى عفيفاً ، ولا تمشي إليه لتخيط عنده عفيفة ولا شريفة ولكنه لم يكن مشهوراً بالفجور ، ولم يكن ماجناً مستهتراً فمن هنا عدّه أهل هذه الأيام ... أميناً صاحب خلق متين !

وأحسّ بالفتور في أعصابه ، ولكنه تماسك وتحامل على نفسه حتى أتمّ القياس ، وتكلم فعجب في نفسه أن وجد صوته يتهدج ويخرج مبحوحاً مخنوقاً ، وما عهده كذلك ... وخاف أن يفتضح فاستأذن في الانصراف ، وخرج وفي نفسه عواطف متضاربة : فهو يرجو العودة إليها ويريد الفرار منها ، وهو قد سعد بلقائها ولكنه يتمنى أن لم يكن عرفها . ولما وصل إلى دكانه لم يستطع أن يبقى فيه ، وأحسّ كأنه قد افتقد شيئاً ، وأنه يحيا في فراغ مخيف ، وكان له ، (وتلك من لعنات هذه الصناعة) عاملات وكان يأنس بهن ويلهو ، فأعرض اليوم عنهن ولم ينظر إليهن ، ووجد تراخياً في بدنه وشيئاً مثل الدوار في رأسه ، فترك الدكان وذهب إلى أقرب قهوة إليه ، فألقى بنفسه على كرسيّ فيها وأغمض عينيه وراح يحلم يقظان ، ولم يكن يتخيل الفتاة بلحمها ودمها وجوارحها ، وإنما كان يرى لها صورة غامضة عجيبة فيها كل ما كان يحلم به من ألوان السعادة

(١) من العامي الفصيح ، والعامة تقولها بالتاء بدل الثاء على عادة الشاميين .

وصور الجمال ، ولم يكن يفكر فى (وصالها) إنما كان فى فكره التقديس لها والرغبة فيها والخوف منها والغيرة عليها من عيون الرجال بل من عين الشمس التى تراها !

وهذا هو الحب العذرى ، من النظرة الأولى ، وإن أنكره العلماء ، وأقاموا الأدلة على إبطاله . لقد عشقها وهو لا يعرف اسمها ، ولا دارها ، ولا مطمع له فى الوصول إليها .

* * *

ومرّت الأيام ولا أصف لك كيف مرّت عليه ، وعاد إلى المدرسة ومعه الثياب ليجرّبها على صاحباتها ، ودخلت البنات عليه ، وخلعن أمامه ولبسن ، وتحركن وحركن ... وتكلمن وسمن ... ولكنه لم يسمع ولم يَرَه ، وكان ينظر إليهن كما ينظر النائم إلى خيالات تجوز به وهو غارق فى لجج الكرى ، وكان فكره معلقاً بتلك وحدها ، وكان يتمنى لرغبته فيها أن تمرّ الدقائق مسرعة حتى يراها ، ويرجو لخوفه منها أن يبطىء الزمان حتى يتهيأ للقائها ... وكان كلما دخلت واحدة اضطرب وخفق قلبه يحسبها هى ... حتى جاءت ...

وكان لطول ما فكر فيها وخلع عليها خياله من سمات الجمال وأحاطها به من التقديس والاكبار ، لا يراها فتاة جميلة كالفتيات بل ملكا هبط من سمائه ، أو حوراء من حور الجنان نزلت إلى الأرض ، وكان يقدس كل شعرة منها ، وكان يخشى أن يمسّ طرف ثوبها ، لأنها كانت عنده كالزهرة التى يذبلها اللمس ، فكان يخاف عليها ويرعاها من بعيد ، ويحسّ الرغبة بأن يمرّغ وجهه بتراب قدميها ، وأن يقبل حذاءها ... حماقة من حماقات العشاق ...

ولم تكن البنت قد سفرت من قبل ، أو خالطت الرجال ، فهى لا تزال مستحيية ، فتهيبت أن تجرب الثوب ووقفت ... فأعانها المدرس وأنزل بيده جواربها ، وخلع عنها ثوبها ، وبقيت بـ(الشَّلحة)(١) ، فلما أبصرها الخياط كذلك ، ورأى المدرس وهو يعينها على نزع الثوب عنها ، اهتز كأنما مشى فيه تيار كهربائى ، واجتمع فى قلبه دمه كله ، فخفق حتى كاد يخرج من صدره ، وشحب وجهه حتى صار بلون قشرة الليمون ، ثم دارت به الدنيا ، ولم يعد يشعر بشىء ...

لقد أغمى عليه فحملوه إلى دكانه ، ولم يعد إلى المدرسة أبداً .

* * *

وهام الرجل بها ، وزهد فى كل امرأة من أجلها ، ولم يبق له فى الحياة مطمع سواها ، فرحمه جماعة من جيرانه ، وذهبوا يخطبونها له من أبيها ، وأخذوه معهم ، فلما عرف ما جاؤوا له ، أباه عليهم وردّهم ، فخرج الشاب وقد ضاقت به الدنيا ، ولم يجد سبيلا يسلكه إلا سبيل الفجور ... فأوغل فيه ، وسخر ماله وشبابه لافساد الفتيات ، فأفسد منهن العشرات ، وهنّ يتهاوين عليه كتهاوى الفراشات فى النار . ومرّت الأيام ، وسمع أن البنت قد خطبت ، وعقد العقد ، وزفّت إلى بعلها .

هنالك أيس الرجل فانقلب شيطانا ، واستحال ذلك الحب فى نفسه بغضاً ، وكذلك يكون البغض الشديد من علامات الحب الشديد ، وأقسم ليدمرن حياتها وحياة أهلها ، ولو دفع ثمن ذلك ماله كله وحياته ، واستوحى الشيطان الأكبر ، ورفاق السوء ...

وهبط عليه (وحى الشيطان) !

فاستعان بمن يعرف من الفتيات من رفيقات البنت ، وأغراهنّ بالمال وبالمتع أن يأتينه بها إلى داره مرة واحدة ، وحلف لهن بالأيمان المؤكدة أنه لا يمسّ جسدها .

واحتلن عليها وزعمن لها أن رفيقة لهن مريضة فهن يحببن أن يزرنها معها ، ورضيت وضربت لهن موعداً ، فأخبرن به الرجل فأعد عدة الانتقام .

* * *

ولما وصلن إلى الدار تأخرن عنها حتى صارت من داخل ، ثم رجعن وأغلق هو الباب دونهن وبقيت وحدها ، ونظرت فاذا الدار خالية ففزعت وركضت نحو الباب ، فاعترضها الرجل وأخرج مسدساً ضخما ، وهددها بأنه قاتلها به إن لم تخلع ثيابها كلها ، وحلف لها إنها إن فعلت لا يمسها بيده ، ولا يدنو منها ، ويدعها تمضى بسلام ، ونظرت الفتاة فاذا هو على صورة الوحش

(١) عامية يقابلها فى الفصيح المجول أو الاتب .

الهائج ، أو الشيطان الغضبان ؛ فارتاعت وجعلت ترجع حتى التصقت بالجدار ، وهو يسلط عليها بريق عينيه وفوهة مسدسه ، فلم تجد مناصاً من الامتثال .

فألقت خمارها عن رأسها ، ثم نزعت معطفها بيد ترتجف من الرعب ، ووقفت ، فاستحيّا ، فانفجرت تبكي وتنشج ، وتتوسل إليه :

— أرجوك ، أنا في عرضك ، أبوس رجليك ... ارحمني استرني ، ماذا عملت لك ، إني امرأة شريفة ولي زوج ...

فزأر في وجهها :

— بسّ !

وأوهمها أنه سيطلق المسدس ، ثم رماه وراءه واستلّ سكيناً طويلة أدناها منها حتى وجدت حدّها على عنقها ، وقال :

— اخلعي !

فخلعت الثوب ، فقال :

— اخلعي كل شيء !

فعادت إلى توسلها وبكائها ، وعاد إلى قسوته وتهديده . فرمت (الشلحة) ، والقميص ، وبقيت بذلك (الكلسون) الذي يشبه خرقة بين رجليها ، وصُدْرة الثديين ، فصرخ بها حتى نزعتها ، ووقفت أمامه كما ولدت أمها ...

ومرت لحظة ، ثم أعرض عنها ، وقال لها : البسي واذهبي .

وصدق وعده فلم يمسسها .

فلما خرجت رفع ستارة ، وقال للمصور :

— هل أخذت الصورة ؟

— قال : نعم ، أخذت لها ثلاث صور !

* * *

خرجت وما تصدق أنها نجت ، فلما بلغت دارها سقطت مريضة ... وكانت هذه الواقعة كابوسا على صدرها ، ما تفارقها ذكراها ، في يقظتها ولا في كراها ، وهجرت رفيقاتها جميعاً رفيقات السوء ، واتخذت لها ملاءة ساترة ... ولكنها أخطأت فلم تنبئ بما جرى لها زوجها ، ولم تصدقه خبرها .

ثم كان الفصل الأخير من الرواية :

وصل الخبيث حبله بحبل الزوج ، وتزلف إليه حتى جمعته به سهرة ، فأحضر معه طائفة من أصحابه الفساق ، وكان قد بيّت معهم أمراً ، فلما احتدم الحديث وحميت السهرة ، وزالت الكلفة وجاءت الالفة ، أدار الخبيث الحديث حتى وجهه وجهة الحب والغرام ، وانطلق يقص قصة لفقها ، فلما انتهى منها ، أخرج الصورة وقال :

— وهذه صورة صاحبتي فيها ، انظروا إلى جسمها وجمالها !

ودفعها إليهم فتناقلتها الأيدي ، وكلما رآها واحد من أصحابه قال :

— وأنا أعرف هذه الفتاة ومعي صورة أخرى لها .

حتى وصلت إلى يد الزوج ، فنظر فيها ، فأحسّ كأن لطمة انحطت على وجهه ، فأظلمت منها عيناه ولم يعد يبصر ما حوله . لقد كانت صورة زوجته !

ودمّر بيتان ، وعوقب بريئان ، وبقي المجرم الأول بلا عقاب ، وهو القرد الذي جاءنا تقليده بهذه البدعة المخزية ، بنظام (المرشدات) !

علي الطنطاوي

مما لم ينشر للرافعي :

أمن عصر العقل إلى عصر القلب ؟
أم من عصر العقل إلى عصر المعدة ؟

مشكلة الفقر والغنى بين العلم والقانون والإيمان

للمرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

يزعمون أننا فى عصر العلم ، وفى دهر القانون ، ويريدون أن يسلبوا الناس إيمانهم ، كأن الإيمان هو مشكلة الإنسانية ؛ مع أنه لا حل لمشكلتها إلا به . إن مسألة الغنى والفقر ، وما كان من بابهما لا يحلها العلم ولا القانون إذ هى من مواد القضاء والقدر فى إنشاء الآلام والأحزان وأضدادها التى تقابلها ، وما كان فوق الإنسانية من السماء قوة لا تحد ، وتحت الإنسانية من القبر هوة لا تسد ، فلا نظام إلا على تصريف النفس أمراً ونهياً ، وتأويل الحياة معنى وغاية ، فان لم يكن الشأن فى ذلك مقرراً فى الغريزة على جهة الإيمان ، فلن يكون العلم والقانون على ظاهر النفس إلا ثورة بما فى باطنها ، ولن يبرح الناس على ذلك بعضهم من بعض كالهارب منه وهو مضطر إليه ، أو كالمضطر إليه وهو هارب منه ، وكلٌّ من كلٍّ فى معنى من معانى النفس لا إنسانية فيه

ما زاد العلماء على أن خلقوا فى ساعدَى الحياة هذه العضلة البخارية ، وذلك العصب الكهربائى . فمن لم يستطع أن يتوق ضربة الحياة المدنيـة بعدة من قوة ، وعتاد من مال ، طاحت به فدكته دكَّ الخسف ، ووضعته من الناس موضع الحبة من الرحى الدائرة . فما بينه وبين أن ينهار موضع يستمسك عليه ، وإنما هذا الوضع هو إيمـان المؤمن إذ يعطف على الضعفاء أو يُسعِدُ أو يبرُّ بما كُتب عليه أن يرق لهم من ذات نفسه ويتحنى ويتوجع .

ومتى كان العلم والدين يقومان جميعاً على تنظيم الطبيعة فى مادتها وإنسانيتها لم تجر الإنسانية إلا على بقاء الأصلح فى الجهتين ، فاذا تخلى بها العـلم وحده فلن تجرى أبداً إلا على ناموس بقاء الأصلح فى ظاهرها لإيجاد الأفسد فى باطنها .

لن يصلح الإنسان للحياة الطيبة — ما دام بهذا التركيب الذى لن يتغير — إلا إذا وازن بين بيئته التى هو يوجهها وبين طباعه التى توجهه ، فقيد أشياء فى قيودها ، وأطلق أشياء من قيودها ، وجمع فى متبوَّأً نفسه حداً بحرية وديناً بعلم . بيدَ أن طغيان العلم فى هذه المدنية قد مرد على طباع[1] الإنسان وشمائله فى كل موضع من الحياة لا تـكافئه فيه قوة الدين فاذا هو يزين الشهوات ، وإذا الشهوات تطوع المغامرة ، وإذا المغامرة تجلب المنازعة ، وإذا المنازعة تدفع إلى الحرص ، وإذا الحرص يتصرف بالحيلة ، وإذا الحيلة تهلك التقوى ، وكان فى تقوى الإنسان إيمانه ، وكان فى إيمانه رحمته ، وكان فى رحمته الأثر الإنسانى الذى تعيش فيه الروح . وعلى ذلك يقع فى الإنسان من النقص بمقدار ما يزيد له العلم ، فاذا هو منحدر إلى السقوط مقبل على المحق راجع إلى الحيوانية بأكثر مما يحتمل تركيبه منها .

أو لا يرى الناس أن تفوق أمةٍ على أمة لم يعد فى هذه المدنية إلا معنى من معانى القدرة على أكلها ... ؟

ومضى العلم على شأنه ذاك حتى جعل الإنسان آلة من آلاته التى غمر بها الدنيا فأصبح من لا إيمان له يتعسف خبائثه[2] لا يدرى أين يؤم منها وأين يقف، فلا يتسفل بقوة إنسان ولا بضراوة وحش ، ولـكن بقوة آلة من الآلات الـكبرى ودقتها وسرعتها وإتقانها ... حتى لا رذيلة من رذائل هذه المدنية إلا هى مفننة فى تركيب على نسق الأمور المخترعـة ، وكأن الآلات العمياء مازادت إنسانها شيئاً إلا أن قالت له كن أعمى ، وكأن المدنية الملحدة ما عدت أن جعلت الوحشية تعمل أعمالها الفظيعة بتأنق وتمدن

نسى الناس الإيمـان أو انسلخوا منه ، فاذا أيديهم تموج بأسباب الفضائل[3] تحـكمها ولا تضبطها ، وما كان الإيمان الصحيح إلا التقوى[4] ، ولا كانت هذه التقوى إلا عملا من أعمال الإرادة غايته إيجاد الغرائز العليا فى الإنسان بالأسلوب الذى لا تخلق الغريز العملية فى النفس إلا به ، وعلى النحو الذى

(١) أى مرن عليها واستمر وبلغ بها الغاية التى تخرجها من جملة ما عليه الطبع الانسانى الـكريم .

(٢) يتخبط فيها على غير هدى .

(٣) ماجت اليد بالشىء إذا اضطربت به كأن أيديهم لا تضبط أسباب الفضائل من ضعفها عنها

(٤) الاسلام كله فى كلة التقوى كما بيناه مفصلا فى كتابنا (إعجاز القرآن) فانظره . وكلة التقوى من معجزات هذا الدين . ولقد قال (هكسلى) قسيم دارون الشهير : « إن الدين هو إجلال المثل الأعلى من الأخلاق ومحبة العمل على تحقيقه فى الحياة » وكل هذا من قول أستاذ القرن التاسع عشر . وكل ما سبقه به الفلاسفة والحكماء ، وكل ما جاء وما سيجىء ، هو من معانى (التقوى) فى الإسلام لا تضيق الـكلمة عن شىء منه .

لا تصلح فى الحياة إلا عليه . أظهر آثار الإيمان تحديد الغايات الإنسانية وتنسيقها والملاءمة بينها ، فان إطلاق الغاية لكل إنسان على شأنه وسبيله كيف درّت معيشته[1] وكيف دارت أهواؤه يجعل طرق الناس متداخلة متعادية فيقطع بعضها على بعض ويقوم سبيل فى وجه سبيل ، فلا تحل عقدة إلا من حيث تعرض أختها ، ولا يتخلص خيط من خيوط اللذات الملتبسة المتشابكة إلا قاطعاً متقطعاً معاً . وأنت إذا بحثت عن الوحدة التى تحاول ضم الإنسانية المتنافرة وردها إلى مرجع واحد لم تجدها فى غير إيمان المؤمنين ، فهو أبداً يقابل فى كل نفس ما تطغى به الحياة على أهلها ، ولا عمل له إلا أن يحذف الزيادات الضارة بالإنسان من بيئته ، وبالبيئة من إنسانها ، وهو بهذا حائل فى كل مجتمع بين أن تنقلب أسباب السمو العقلى فتعود من أسباب الدناءة والخسة .

وإنما محل الإيمان من أهله فوق محل الحكومة ممن تحكمهم ؛ فهو الأمر والنهى بلغة الدم والعصب ، وهذه الغايات التى تتألف من أجلها الحكومات كأمن الناس ونظامهم وسعادتهم هى أنفسها محكومة بمسائل تأتى من ورائها فى طبائع الناس وعاداتهم ومعايشهم ومصالحهم ، فان لم تكن فى النفوس من الدين أصول تأمر وتحكم ، وفى الطباع من اليقين أصول تستجيب وتخضع ، رجعت الحكومة فى الناس أداة مسلطة لا تغنى كبير غناء فى الخير والشر . إذ يحتاج الخير أبداً إلى قوتها تحميه ، ويحتال الشر أبداً على قوتها تستنقذه ، ومتى لم يكن الخير إلا بالقوة فاحتياجه إليها شر ، ومتى لم يكفّ الشر عن القوة فاحتيالها عليها شر مثله ، فاذا تضعضعت من الأديان هذه الدعائم الراسية ، وفرط من الانسانية هذا الفارط الذى ليس فى الأرض كفاء منه — لم تجد حسنة فى حكومة من الحكومات إلا معها من طبيعتها سيئة ، ولم تجد سيئة إلا هى سيئتان ، فلن تكون الحياة حينئذ إلا تعقيداً أشد التعقيد من طغيان القادرين عليها بالمال والغنى ، ومن حقد العاجزين عنها بالفقر والحاجة .

والغنى القادر على متع الحياة ولذاتها هو دائماً فى فلسفة العاجز قادر بلا قدرة ، كما أن الفقير الضعيف هو دائماً عند نفسه عاجز بلا عجز ، ولا أدل على ذلك من تعبيرهم عن معناه بالكلمة التى تشبه أن تكون هى أيضاً معنى بلا معنى ... وهى الحظ . فلا بد للناس من الحدود التى تبنى بين كل ضدين من أحوال الإنسانية جداراً يعطف نفساً على نفس بالرحمة ، ويرد قوة عن قوة بالصبر ، ويكف عادية عن عادية بالتقوى ، ويحقق عوامل التوازن بين أسباب الاضطراب فى الجماعات المتصادمة ليُقرّ كلّ مضطرب فى حيز إن لم يمسكه فيثبت فيه لم يفلته فيعدوَ على سواه . فاذا عملت المدنية على هدم هذه الحدود ، وتركت قوة الإيجاب فى طبيعة الحياة بغير قوة قلبية سليمة من الإيمان فى طبيعة النفس ، كشفت للانسان عيوبه ببلاغة من تعبير شهواته فزادتها رسوخاً فيه كما تقول للص : إنك لتسرق وتستصبح غنياً تمر يدك فى الذهب تنفق وتستمتع على ما تشتهى . فما بالك قلت له لا تكن لصا وتعفف ، بل قلت له كن غنيا واستمتع . ويومئذ ينفجر البؤس ويقشعر الفقر كما نرى لعهدنا فى الأمم التى فشا الإلحاد فيها ، فليس من بعد إلا أن يتحول الفقر عن صورته البيضاء فى سكب الدمع إلى صورته الحمراء فى سفك الدم ، وكان سؤالا فيعود اغتصابا ، وكان الأسفل فيرجع الأعلى ، وكان يفرضه الحق فإذا هو الحق نفسه . والله لكأن المسكين فى هذه المدنية هو الجزء الآثم الذى طرده الغنى من نفسه وتبرأ منه وأمات ما بينه وبينه ، فاذا هما اعترضا فى مذهب من مذاهب الحياة ، نفر الغنى كأنما يرى قبره يدنو منه ، وأطبق عليه البائس بمعانى النقمة واللعنة يقول له ما أنا إلا لؤمك أنت .

إن من الشجر شجرة تنبت فى القفر تمتص ماءها من بين رمل وحجر ، وتمتص غذاءها من لؤم الجدب ، فاذا حان أن يزهر عودها شوك فلا يكون فى عقده ونبره[1] إلا شوك ، فاذا ازدرعوها فى الخصب وخضلها الماء[2] ، وساغت لها الطبيعة ، ثم حان أن يزهر عودها ملسه كرم الأرض[3] ؛ فإذا فى موضع كل شوكة زهرة كأنها كلمة الحمد . وكذلك مثل الفقير بين الملحد والمؤمن

ترى أيخرج الإنسان فى هذه المدنية من عصر العقل إلى عصر القلب ، أم هو منحدر من عصر عقله إلى عصر معدته ؟

وكان على هذه الأرض أغنياء مؤمنون فيهم من كرم الحس شبه الفقر ، ومساكين مؤمنون لهم من كرم الصبر شبه الغنى ، فهل تنقلب المدنية من الغنى المحض والفقر المحض إلى مادة تخلق اللحم الحى وأخرى لا تخلق له إلا الظفر الحى ... ؟

وكان اختراع الإنسان فى المادة الجامدة ، أفتراه يجيء يوم على الناس يكون أعظم اختراع فيه للانسان الأخير أن يعيد إلى الأرض إنسانها الأول الكريم ؟

مصطفى صادق الرافعى

(١) كناية عما تتفق به أسباب العيش وتجتمع وتزكو .

(١) النبر النتوء الذى فى العود . (٢) بله الماء .
(٣) نعمته وأدمجته وأزالت نتوءه .

مسـكين . . . !

للاستاذ صلاح الدين المنجد

جلس بسام على صخرة مشرفة على طريق القرية الضيق ، يلهو بقذف الحصى ، ويرنو إلى الأضواء الراعشة ، وهي تخفق في السهل البعيد . وكان الناس قد آووا إلى دورهم ، مذ طفلت الشمس للمغيب . فتلك كانت عادتهم في هذا المصيف المتوارى في ثنايا الجبال . وكانت الطرقات قفراً ، والليل هادئاً ، والقمر يقطع السماء بدلال واطمئنان ، تحف به النجوم باسمات ، يتنادين ويتغامزن ، كأنهن حسناوات يتبعنه في لجة البحر ...

وطرق سمعه صوت ناعم رخيم نبهه ، فأرهف أذنيه ، وحدق بعينيه ، ثم قفز من الصخرة ، يتلفت يمنة ويسرة . فلمح في طريق تخرج من سفح الجبل ، فتراءى على صدره ، وتغيب في قمته ، شبحين ينحدران وسط الظلام ؛ في مشيهما ميسان وفتور . وقد استند رأس برأس برفق ، واشتبك ذراع بذراع بعنف ، وغرقا في تمتمات وغماغم ، شغلتهما عما يحيط بهما ، من طبيعة وسنى ، وقمر ضاحك ، ونسيم رطب ، ونجوم ساطعات .

وتقدم الشبحان يميسان . فخفق قلب بسام ، وظن أنه حبيب يغازل فتاته في هذا الليل الوسنان . فخطر على قلبه أن يعبث بهما فيقلد عواء الكلاب ليرعبهما ، ولقد هم ... لولا أن حدق ثم حملق ، ثم بلع ريقه ، وخفق قلبه ، وذهل ... لقد لمح ، تحت ضوء القمر ، حسناءه ، زهرة الياسمين ، التي فتنته ذات يوم ، في قاعة الدرس ، إنه يوم مسحور ... أبصر به جمال الحياة يشع في عينين زرقاوين كالبحر ، وشعر أشقر مجدل كسنابل القمح ، وفم رقيق كأنه الجرح يقطر الدم ، وينفح العطر ... فراح هيمان بها ، لا يصحو من حبه ولا يفيق .

وفار الدم في عروقه ، ورمى بحصوات كانت في يده . وساءل نفسه عما تفعله الآن ، وقد انتشر الليل ؟ ترى أهي تحب فتى غيره ؟ وكيف تحب ، وهي له وحده ؟ . وهم أن يهجم على هذا الذي معها فيهشم عظامه ، ويسحقه . فاقترب مغيظاً ... ولكنه ما لبث أن تبين أن الذي معها فتاة ، وليس فتى . فشعر بتيار بارد يجرى في عروقه ، وتصبب العرق من جبينه ... وبهت ... وضحك ، بعد برهة ، من نفسه كالمجنون . وعاد إلى الوراء خطوات ، فاختفى وراء صخرة ضخمة ... وحدثته نفسه أن ينتهز الفرصة فيكلمها . فهذه فرصة لن يجد مثلها . الجو صفو ، والحب شديد ، والرقباء بعيدون .

وهو ما انفك ، مذ عرفها في المدرسة ، يحاول الكلام معها ويود التقرب منها ، فلا يستطيع . فكان يكتم هواه ويتجلد . وربما زور في نفسه جملا حلوة ، وكلمات ناعمات ، آملا أن تتصل بينهما المودة ، فيحدثها بها ... ولكنه كان يفشل دائماً فيما كان يحاوله . فقد كان أستاذه القصير يقلقه ، وكان رفيقه الشيخ المتعصب للدين يزعجه . فهؤلاء أوانس يحرم على الشبان كلامهن ، أو النظر إليهن .

وشمت فكرة التحدث إلى حسنائه ، في نفسه كالشمس . وشعر بقوة تدب في جسمه . وأخذ قلبه يخفق ... ورفع رأسه ليرى الشبحين ... وهم أن يوقفهما ، فقد اقتربا منه . وظن أنها ستفرح بلقياه ... فلقد كان يخيل إليه أنها تحبه ، ودلائله على هذا لا تعد . كم مرة عمد إلى كتب الأدب ، فاستفتى صفحاتها ، فكانت تغريه . كم مرة فتح دواوين الشعراء ، ليعلم (حظه منها) فكانت الأشعار تبشره . حتى لو كانت القصائد على غير مايشتهى . إنه كان يقنع نفسه أن الشاعر كان يقصد غير ما قال ... وكم مرة نظرت إليه نظرة ، قد تكون عابرة ، فقضى الليالى يفسر النظرة ويقول لنفسه : إنها لتحبنى ... فكيف لا تفرح الآن ، إذا رأته أمامها ... إنها لا تفرح فقط ، بل ستلقى بنفسها عليه ، وستقول له خذنى ... فهأنذى بين يديك ... !

وتقدمت زهرة الياسمين ، فتبين من معها . إنها رفيقتها بنفسجة فسر . ترى من يجامل منهما ؟ وكيف يغازل زهرة الياسمين ؟ ألا تغار هذه البنفسجة ؟ وقال : اوف ، هذه مشكلة جديدة ... إن زهرته قد تتكره أمام صاحبتها ، وقد تسمعه قارس الكلام ... ولكن كيف يقدم لها ما زور في نفسه من كلمات غزلات ، وقد صنعها لها وحدها ؟

ومر الشبحان ، فتقلص بسام ، واختبأ ، وحبس أنفاسه . ثم عاد فرفع رأسه ، لقد ضاعت الفرصة .. مرت ولم يكلمها

لا بد من التحدث معها . ولكنه لم يفكر قط فى رفيقتها هذى ولم يحسب لها حساباً ··· وخطا خطوات ··· واتجه نحوها . فسمع هامساً يهمس فى أذنه : « أنت شاعر ··· وأديب ··· ! » فرفع ، بلا شعور ، رأسه ، ونفخ صدره ، وامتلأ زهواً . وردد بنفسه : « نعم ··· أديب ، لى من سعة المعارف ، فى الشعر ، ما يسهل لى كل عسير . ثم أنا شاعر ··· وشعرى رقية للحسان وسحر ··· سأحدثها . فإذا أعوزنى الأمر ، نثرت ما حشوت به رأسى ، من أشعار ، كالزهر » .

واندفع ··· تاركا عن يمينه صخرته التى كان يجلس إليها ، ثم مشى بحذر يخلف وراءه الطريق الوعرة التى تقوده إلى بستان القرويات الثلاث اللواتى أبغضن الرجال ، فتبادلن ، كما زعموا الحب . ثم عرج فجأة ، فإذا هو وراء الفتاتين ، على بعد أمتار ··· لقد أدركهما .

ولكن كيف يبدأ الحديث ؟ هذه مشكلة ثانية ··· وأخذ يتذكر ، وقد اطمأن أنه وراءهما ، ما كان زوره فى نفسه . لقد نسى بعض ما زور ··· إن فيه : « أرأيت إلى الوردة التى عشقها البلبل ، يازهرتى ، فطاف فى الدنيا يجمع لها اللآلى وزينها بها ، ويغنيها فى الصباح والمساء من الغناء ما يبهجها . إنك لأجمل منها عند ما تبسمين ··· » ولكنه تلعثم ··· ترى أتليق هذه الكلمات ؟.إنها خيالات شاعر يغازل بها الورق ، لا الحسان ··· ! ثم ، أتفهم عنه ما يقول . كان يعتقد أن المرأة ليست جديرة بهذا ولكنه كان يجد نفسه مسوقاً نحوها مفتوناً بها ··· !

وحاول أن يذكر جملة أخرى ··· « أنت يا زهرتى ، بين أنشودة وبنفسجة ، لكالشمس تبدو رفافة بين غمامتين تضحك للدنيا وتغمرها بالنور ··· » فأعجب بما قال وزهى . ولكنه فطن أن أنشودة غائبة ، وأن فى الليل القمر . وإذن ما ذا يقول ؟ وتنبه . لقد كادتا تصلان إلى السفح . وها هو ذا طريق القرية يبدو ، بل ها هى ذى دارخسنائه ، تلمع سقوفها الحمر ، تحت ضياء القمر ، إنها قريب ، فى رأس الطريق . ونادى من أعماق نفسه : « يا رب ··· يا رب ! » وقبض على أصابعه ، وضغط على أسنانه وفار الدم فى وجهه . كيف يحدثها ؟ كيف يبدأ الحديث ؟ وبم يحدثها ؟ وتأفف . ولعن هذه الدراسة الطويلة التى قطع شبابه بها ، ثم هو يجبن عن التحدث إلى فتاة . إنه بارد بليد . ولم يجد شفاء لنفسه غير سباب أرسله إلى أستاذه ورفيقه .

وشمت فى رأسه فكرة فتمسك بها كأنه يخاف أن تفر . بعد أسابيع سيرسل ، وترسل ، للتدريس لقد جمعتهما المهنة . فلماذا لا يتخذ ذلك سبيلا إلى التحدث . ولقد كان يغيظه أن يراها تناجى رفيقتها وهو قريب منها ولا تناجيه . يا ويحهما . كأنهما عاشق وحبيب .

وبلغ السفح ، وهو يمشى على رود . ويئس وفكر فى الرجوع ، وانثالت على رأسه فكر جديدة : « هيا ، لأتعثر عمداً فأتدحرج أمامهما ··· عندئذ تقفان ··· وعندئذ أحدثها ··· » وهم وتشجع ولكنه جبن . لقد خاف أن يتبعثر شعره الذى صففه ورجّله .

وخشى أن تضحكا منه وتهزءا به ، فأجفل ، ووقف ، والفتاتان مسرعتان .

ورآهما وقد بلغتا طريق القرية تهرولان فجمد بصره . وشعر كأن فى عنقه حبلا يشد به نحوهما . فهرول هو أيضاً بلا وعى ، وأخذ وهو يهرول يلوم نفسه ويشجعها ويدفعها أن تحييهما ، فالتحية مفتاح الحديث . وأسرع فى العدو وقد خاف أن يفوته إدراكهما . لقد بلغتا القصر ··· هذا القصر الذى زينت جدرانه بالياسمين ، وتدلى فوقه زهر أحمر يسمونه « الزهر الفرحان » . وأسرع ··· وجهد نفسه ··· وفى عينيه نار ، وفى قلبه نار ··· آه ! ليت الطريق تطوى ··· وليت قلبه لا يخفق ··· ليستطيع إدراكهما ···

وبلغ القصر ، وهو يلهث . فتشجع ، وابتسم . وفى اللحظة التى فتح فيها فاه ليقول بصوت راعش :

— مساء الخير يا آنسة ··· مساء الخير ···

كان باب القصر يغلق ··· وزهرة الياسمين ، تغيب

وأغمض عينيه ، وشحب وجهه ، وأطرق برأسه . ثم مضى وفى عينيه دمعه .

وردد النسيم الهائم فى تلك الليلة تحيته اليائسة ، وتهامس الزهر العارش ··· « إنه مسكين ··· إنه مسكين ! » .

صلاح الدين المنجد

شكسبير العـــاشق

للأستاذ يوسف روشا

كان جون شكسبير ، والد الشاعر ، فلاحا . ويقول بعض الرواة إنه كان جزاراً . وليس ببعيد أن يكون الرجل قد اتخذ هاتين الحرفتين فى آن واحد ، فقد كان جم النشاط سريع الانسجام لا يحجم عن المغامرة فيما يعرض له من الشئون ، فتحسنت حاله بسرعة إذ نراه فى سنة ١٥٥٦ — ولم يمض على وفادته على « ستراتفورد » سوى خمس سنوات — قد ابتاع دارين أنيقتين وانتخب نائباً عن هذه البلدة ، ثم قام بعـد هذا بقليل بأكبر صفقة فى حياته وذلك بزواجه من « مارى أردن » ابنة المزارع الغنى ، فاستقامت حاله وارتفع فى مدة وجيزة من مزارع بسيط إلى مصاف أعيان البلدة .

ولد وليم شكسبير فى سنة ١٥٦٤ ولا يزال اليوم الذى ولد فيه موضوع أخذ ورد ، فمنهم من يقول إنه ٢٢ أبريل ، ومنهم من يزعم أنه ٢٣ أبريل ، فليس فى هذا ما يهم ، إنما الذى يعنينا أنه ولد فى ١٥٦٤ وكان الصبى الأول والطفـل الثالث لجون ومارى شكسبير .

لم يرسل جون ابنه وليم إلى المدرسة إلا عند بلوغه السابعة من عمره . وليس من شك فى أن وليم ، وما عرف عنه من توقد فى الذهن ونفاذ فى البصيرة ، كان قد التهم بسهولة ويسر كل ما تلقاه فى مدرسته ، وليس هذا الذى تلقاه مما يغنى ، ذلك أنه لم يكن يتعدى النحو وشيئاً قليلاجداًمن اليونانية واللاتينية اللتين لم يتقدم فيهما تقدما ملموساً ، حتى أن «بن جونسن» ، وقد كان معاصراً للشاعر ، قال عنه مرة إن معرفة شكسبير باللاتينية قليلة وأقل منها معرفته باليونانية .

على أن حال الأب المالية أخذت فى التدهور حتى اضطر آخر الأمر إلى إخراج كافة أبنائه من المدرسة .

لا نعرف شيئاً عما كان يفعله الشاعر من الثالثة عشرة إلى الثامنة عشرة من عمره ، وأغلب الظن أنه كان يساعد أباه فى مهنته كجزار ، إلا أن سوء الحظ لازم جون شكسبير ، فأخذ ينحدر رويداً رويداً إلى هاوية الإفلاس والفقر المدقع ، فساءت أخلاق وليم وانضم إلى جماعة من الأشرار يسرقون الغزلان من حدائق الأغنياء !

ولـكن اقتحام الحدائق واختطاف الغزلان لا يعدان شيئاً بجانب ما كان يقوم به وليم شكسبير من غزواته الغرامية ؛ فقد وجه سهامه ، وهو لا يزال فى الثامنة عشرة من عمره إلى فؤاد « آن هاتوى » ابنة فلاح ، فصادها !

كان وليم مشبوب العاطفة ، زير نساء ، كما تدل عليه أشعاره وخاصة قصيدته « فينوس وأدونيس » . ومن المؤكد أنه لم يكن يقصد من مغازلة « آن » سوى العبث وإشباع الشهوة ، ذلك أنه لم يكن يحبها ، كما تبين فيما بعد ، ولـكن المسألة تطورت وأرغم آخر الأمر على أن يتزوجها .

كانت « آن » تكبره بثمانى سنوات ، وبعد ستة أشهر من زواجها وضعت له صبية أسماها « سوزان » ولا ريب أن هذا هو السبب الذى من أجله أرغم وليم على الزواج .

على أن هذا الزواج كان نكبة على الشاعر ونعمة على الأدب الانـكليزى خاصة والأدب العالمى عامة .

ذلك أنه لو لم يتزوج « آن » هذه لما نزح إلى لندن ولما عرف تلك الفتاة ذات الشعر الناعم والحاجبين الأسودين التى جرعته الصاب والعلقم ، والتى من أجلها أخذ يخرج تلك الروائع الخالدات ، ينفث فيها سمه ، وينفس بها عن كربه .

لقد كان وليم ، كما أسلفنا ، زير نساء ، لا يكف عن رمى شباكه هنا وهناك لاصطياد الـكواعب ، وكانت « آن » زوجته شديدة الغيرة ، شكسة الطبع ، فـكان الخلاف بينهما يتسع والحالة تزداد سوءاً يوماً بعد يوم .

إن غلمته العارمة ورعونته الهوجاء هما اللتان ورطتاه وقيدتاه بهذه الأنشوطة فلا مناص له الآن إلا أن يقطع الحبل . لقد كان عليه أن يختار أحد أمرين ، إما أن يكون مخلصاً لطبيعته وفنه ، وإما أن يذعن لعرف المجتمع وواجبه ؛ فاختار الأول وفر إلى لندن ، ولقد عاد هذا الاختيار على العالم بأكبر فائدة .

ولقد حاول الشاعر أن يعتذر عن هذه الزلة بهذا البيت :

« الحب طفـل غرير ليس يدرى ما الضمير »

لا نريد أن نقف طويلا لنتبع خطوات شكسبير فى لنـدن مخافة أن يطول بنا الكلام فيلهينا عما نحن بصدده . يقول الرواة إن أول عمل قام به الشاعر عند هبوطه على لندن هو إمساك الجياد عند أبواب المسرح مقابل جُعل ؛ ثم تدرج قليلا قليلا إلى أن أصبح ممثلا ومؤلفاً للمسرح .

يذهب « فرانك هارس » ، الناقد الانـكليزى الشهير إلى أن حياة شكسبير فى لندن حتى سنة ١٥٩٧ — السنة التى تعرف فيها إلى « مارى فتون » — كانت سعيدة إلى حد ما على الرغم من هذه السحابة القاتمة المتغلغلة فى نفسه . لقد كان ، وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره أعظم شاعر ومؤلف للمسرح أنجبه التاريخ ، وكانت أواصر الصداقة تربطه مع « الايرل أوف ساوثمتن » واللورد هربرت « بمبروك » ، وهما شابان ارستقراطيان عريقان فى المجد ، وهذان قرباه إلى القصر .

ومن طريف ما يذكر أن الملـكة « اليزابيث » شاهدت مرة رواية « الملك هنرى الرابع » فأعجبت « بفلستاف » ، تلك الشخصية الجذابة المرحة ، فأوعزت إلى شكسبير رغبتها فى أن ترى « فولستاف » عاشقاً قد تيمه الحب . فنزولا على رغبتها أخرج شكسبير فى مدة لاتتجاوز الأسبوع مسرحيته «زوجات وندسور المرحات » فـكان نصيبها الفشل ، ذلك لأن الفن العالى لا يخضع للمؤثرات الخارجية ولا يصدر إلا من منبع واحد هو وحى الفنان !

والآن مَن هذه السيدة « مارى فتون » التى سيطرت على فؤاد الشاعر وأضرمت فيه نار الحب ؟ إنها وصيفة الملـكة «اليزابيث» ، فى التاسعة عشرة من عمرها ومن عائلة عريقة فى المجد . لقد وصفها شكسبير بأنها امرأة لا كالنساء ، فارعة القوام ، شاحبة اللون ، عيناها وحاجباها سوداوان ، غجرية الطبع ، متغطرسة ، متمردة ، خليعة ، من أرومة عريقة فى المجد وصاحبة مركز رفيع .

هذه هى المرأة التى جن بها الشاعر ، فما هى صفات شكسبير ومؤهلاته حينذاك ؟

لقد كان فى الرابعة والثلاثين من عمره ، ضعيف البنية ، محطم الأعصاب ، خجولا ، فقيراً ، شاعراً . ولـكن أغلبية الشعب فى ذلك العصر ، عصر البطولة الجسمية ، لم تكن تحفل بالشعر والشعراء ، وكانت تفضل مصارعة الديكة على أية تحفة فى الفن والأدب .

لذلك لم يجد شكسبير من نفسه الشجاعة لبث هواه اللاعج لحبيبته بنفسه ، فرجا صديقه «اللورد هربرت» أن يقوم عنه بهذه المهمة فقبل ، ولـكن « مارى فتون » تشبثت باللورد الشاب الوسيم وبادلها هو أيضاً الحب وخلفا الشاعر يندب الصداقة والوفاء.

على أن شكسبير لم تخمد جذوته بل زاد وجده ضراما على مر الأيام ، فما انفك يصب جام غضبه على العاشقين فى مسرحياته وقصائده ، يصرح حيناً ويلمح أحياناً . ففى مسرحيته « جعجعة ولا طحن » يذكر الحادثة بصورة جلية على لسان « كلوديو » ناصحاً للعشاق ومحذراً لهم من الوقوع فيما وقع هو فيه إذ يقول : « حقاً إن الأمير يبثها غرامه ويستهويها لنفسه . إن دعائم الصداقة تكون ثابتة متينة فى كل شىء ما عدا أمور الحب ؛ فنصيحتى للمحبين ألا يتخذوا وسيطاً بينهم وبين من يحبون ، بل ليبثوا غرامهم بأنفسهم ؛ ذلك لأن الجمال نوع من السحر لا تلبث الأمانة أن تذوب أمامه وتتلاشى » .

ولقد تشتد بالشاعر الأزمة ويضيق « بمارى » ذرعه فيرعد ويزبد مهدداً إياها بأنه سيهجوها أقذع الهجاء وأقساه ؛ ولـكن فاته أن امرأة « كمارى فتون » ، التى كانت تلد نغلا بعد نغل دون ما حياء أو خجل ، لا يهمها ما يكتب عنها بعد ما ذاع أمرها بين الملأ ، وأغلب الظن أنها كانت تقابل التهديد بشىء غير قليل من السخرية والاستخفاف .

إذا أردت أن تعرف رأى شكسبير فى « مارى فتون » هذه فما عليك إلا أن تقرأ مسرحيته «أنطونيو وكليوباترة» فما «أنطونيو» سوى « شكسبير » وما « كليوباتره » سوى « مارى فتون » وإليك البيان .

« أنطونيو » : إن مكرها لا يكاد يتصوره عقل إنسان !

« أنوبربس » : مهلا سيدى لا تقل هذا . إن عواطفها لمن أنبل العواطف وإن حبها لصاف نقى لا تشوبه أية شائبة

الأدب في سير أعلامه :

ملتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ١٩ —

الزواج والصدمة الأولى :

لم يكن زواج هذا الشاعر الفيلسوف أمراً من أمور حياته الشخصية فحسب ، يتدبر قصته من يريد أن يستكمل فهم شخصيته ويحيط به من جميع أقطاره ، ليقف منها على ما هو بسبب من خلقه أو عاطفته ، وإنما كان هذا الزواج وما وقع له فيه إلى جانب ذلك حادثاً أثر في تفكيره وفلسفته ، فعمد إلى توضيح فكره في كتيبات جديدة جرت عليه مخالفة من دافع عنهم من البرسبتيرينز إياه ، وأدت به إلى مخاصمتهم ومحاربتهم ؛ ثم استقر أثر ذلك الزواج في نفسه حتى كان ناحية من نواحي فلسفته في قصيدته الكبرى فيما بعد ...

في أواخر ربيع سنة ١٦٤٢ ، ذهب ملتن إلى الريف في غير غرض معلوم اللهم إلا ما ظن أصحابه من طلبه الاستجمام ، وقضى ملتن زهاء شهر في قرية فورست هل ، وتقع على نحو خمسة أميال من اكسفورد ، وهي المقاطعة التي نبتت فيها أرومته فقد كان جده لأبيه أحد الموظفين في الغابات الملكية هناك .

ونزل ملتن ضيفاً على ريتشارد پوول ، وكانت بين أسرة پوول وأسرة ملتن صلة معرفة ومودة .

وعاد ملتن إلى لندن فما كان أعظم دهشة أصحابه إذ رأوه يأتي ومعه ماري پوول زوجا له ، وكانت فتاة في السابعة عشرة من عمرها ، وكان هو يومئذ يتشرف على الخامسة والثلاثين ؛ ولطالما رأوه عزوفاً عن الزواج منصرفاً عنه إلى كتبه وشعره ، يسرف أحياناً خياله الشاعر ويغلو في وصف العفة حتى ليجعلها في أن يعيش الإنسان أعزب أبداً !

وجاء مع العروس سيدات وفتيات من أهلها فأقمن في بيت ملتن أياما نعمن فيها بما أقامه من زينات ومباهج وأفراح أحاط بها هذا العرس حفاوة منه بعروسه ، وشوقاً منه إلى المسرة وقد تحمل سأم العيش وقسوته زمنا طويلا في حرب القساوسة ومكابدة الدرس ومعاناة التعليم .

وانصرف أهل العروس وتركنها في كنف زوجها الشاعر الفذ والفيلسوف المرموق المكانة ، ولكنها ما لبثت أن لحقت بهن ولم يكد ينتهي شهر العسل ، الأمر الذي دهش له أصحابه أكثر مما دهشوا لزواجه الفاجيء .

وكانت العروس قد أرسلت إلى أمها تسألها أن تكتب إليها لتحضر إلى بيت أبيها لتقضي هناك بقية الصيف ، وما كان أبواها ليجيباها إلى ما طلبت ولم يكد يمضي عليها شهر في بيت بعلها ، لولا أنهما ظنا أن وراء طلبها سراً حملها عليه ؛ وكان ملتن يعلم ذلك السر فوافق على رحيلها لأنه أيقن أن لا شيء أجدر من

« أنطونيو » : لكم وددت أني لم أرها قط .

« أنوبرس » : ولكن تكون في تلك الحالة يا سيدي قد فاتتك قطعة من الفن مدهشة ؛ وتصبح رحلتك بدونها جافة عقيمة

بهذه الأسطر الوجيزة عبر لنا شكسبير عن رأيه في « ماري فتون » . إنها شر لابد منه

ثم يصيح على لسان «انطونيو» والحسرة تكاد تمزق أحشاءه « إلى أين قادتني مصر ؟ »

إلى الهاوية ولا ريب .

كان ذلك في ١٦٠٨ وكان قد مضى على تعرفه « بماري فتون » إحدى عشرة سنة ، ذاق في أثنائها الأمرين ، فانطوى على نفسه ، وأخذ يخرج تلك المآسي الرائعة ، حتى وهن جسمه ، وانهدت أعصابه ، ونال منه الإعياء فانسحب إلى «ستراتفورد» ، مسقط رأسه ، ليقضي ما تبقى من حياته القصيرة تحت عناية ابنته ورعايتها .

(بغداد) يوسف روشا

نصيحة أمها بأن يصلح شأنها ويبث فى قلبها شعور الواجب نحو زوجها ؛ فرحلت عنه عذراء كما جاءته عذراء ...

وحل الموعد الذى حددته لعودتها ولكنها لم تعد ، فكتب إليها ملتن فلم تجبه ، فأرسل إليها رسولا بكتاب منه فأصرت على صمتها وأهانت الرسول ، فوقع فى وهمه أنها لن تعود أبداً ، وابتأست نفسه بما فعلت وامتلأ منها قلبه غيظا وحنقا

وحار أصحابه فى أمرها كما حار من كتبوا حياته من بعد إلى أى شىء يردون مسلكها ! أكان ذلك منها لأن زوجها بيوريتانى من أنصار البرلمان فى حين كان أبوها من أتباع الملك وأنصاره وقد اشتعلت نار الحرب بين الجانبين ؟ أم كان ذلك لأنها كانت من قبل فى موطن يمج بالحياة والأنس حيث كان يغشى جند الملك بيت أبيها بين الفينة والفينة فتقع عيناها هناك على وجوه جديدة وتسمع أنباء جديدة ، فانتقلت منه إلى بيت شاعر عاكف على كتبه وأوراقه تشيع فى أنحائه الوحشة ويسود السكون ولا تسمع فيه من الأصوات إلا بكاء من يضربهم ملتن من طلابه ؟ أم نال من كبريائها أن أباها كان مديناً لأسرة ملتن بمبلغ من المال عجز عن أدائه ، فإن دخله من أرضه ومن مال زوجته لم يكف نفقات عيشه إلا بجهد نظراً لكثرة عياله ولما كان يهبط داره من الجند وغيرهم من أنصار الملك ؟ أم خيل إليها أنها وهى ابنة سبعة عشر عاما لم تحس بين يدى زوجها وقد كان عمره ضعف عمرها ما كانت تحس به لو أنها كانت بين يدى شاب فى مثل سنها ؟ أم أن ما بينها وبين زوجها من تفاوت عظيم فى الثقافة ومن اختلاف فى النظر إلى الحياة نتيجة لهذا التفاوت قد جعلاها تخجل من نفسها وتحس ضآلة شخصيتها إلى جانبه وتشعر أنها غير حقيقة بأن تدخل على نفسه من السرور ما يطمع فيه رجل من زوجته ؟

كل أولئك فى الواقع كان خليقا أن يلحق الفشل بهذا الزواج . أما أهل العروس فقد عولوا على ألا يردوا هذا الفشل إلا إلى الخلاف فى السياسة والدين بينهم وبين ملتن البيوريتانى البرسبتيرى الذى يميل إلى جانب الرؤوس المستديرة كما كان يسمى جند البرلمان بينما هم ينحازون إلى جانب الفرسان كما كان يسمى جند الملك فى هذه الحرب الأهلية الدائرة الرحى

على أنهم يحسون بينهم وبين أنفسهم أن ذلك لا يكفى وحده للمباعدة بين الزوج وبين عروسه على صورة لا تكون إلا لنفور أحدهما من الآخر نفوراً لا تجدى معه حيلة ، ولا تفسره إلا تلك الأسباب التى ذكرناها مجتمعة ، فقد انقضى شهر العسل ولم يقض منها وطرا ، وكان النفور من جانب العروس لأن الزوج ظل يدعوها بكتب متلاحقة لتعود إليه فلم يجد منها إلا إعراضاً وإصراراً ... ...

وحق اللوم على ملتن فهو الذى اختارها زوجة له ، وكان جديراً أن يتدبر ما بينها وبين أبيها من فوارق وما بينه وبينها من تفاوت ؛ على أن عين الحب عمياء كما يقول شكسبير ، وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما يقول أبو الطيب ، وقد كان ملتن كما رأينا فى سالف مواقفه سريع التأثر بسحر المرأة يتهافت على ما يصوره له خياله الشاعر من الجمال تهافت الفراشة على الضوء ، فقد أحب كما علمنا من أمره وهو فى صدر شبابه فتاة وقعت عليها عيناه لأول نظرة فى زحمة لندن ولم يرها بعد ذلك أبداً ، حتى لقد عول على الهرب من لندن مخافة أن تصيده سهام كيوبيد . ولقد تعرض لهذه السهام فى إيطاليا كما رأينا ، وما زال يتحاماها وهو الحريص على عفته حتى وقعت عيناه على هذه الفتاة الريفية وكانت تهجس أحاديث الزواج فى نفسه كما تبين فى رثائه صديقه ديوداتى ، فأقبل على الفتاة وقطع أمره فى غير روية ، فما به خوف اليوم من كيوبيد والمسألة مسألة زواج — وهكذا تصيده السهام ويملك قلبه الحب

واختلف مؤرخو حياة الشاعر فى هذه الفتاة أكانت جميلة ساحرة أم كان حظها من الجمال بحيث لا يصل إلى حد الفتنة ؟ فمنهم من يؤكد سحر جمالها ، وحجته أنها لو لم تك كذلك ما بلغت من نفس الشاعر بمثل هذه السرعة وهو الذى لا تخطىء الجمال عيناه . ومنهم من يؤيد الرأى الآخر وحجته أنه لم ترد فيما ذكر الشاعر عنها إشارة إلى سحرها ، وما افتتن ملتن منها إلا بما رآه من وداعتها وخفرها ونضرة الريف فى محياها وجسدها ، والشاعر خليق أن يضيف بخياله إلى محاسنها جمالا فترى عيناه فيها ما لا يرى غيره من الناس . على أن هؤلاء وهؤلاء لا يتجاوز

كلاهم الاستنتاج فلم يقع أحد منهم على دليل لما يقول ؛ ومهما يكن من شيء فإن عين الحب عمياء وعين الرضا عن كل عيب كليلة ، ولقد كان ملتن تلقاء فتاة قروية فى السابعة عشرة إلا تكن فارهة الجمال فقد كانت فى روعة الشباب ، وقد جمع للزواج عزمه ، فما أمهل أن تريه عيناه فيها من معانى الجمال والطهر والعفة فى بيت أبيها الريفى ما يتغلب فى خياله الشاعر على كل عقبة ... ...

ولقد أقض الألم مضجعه لهذا الفشل وقد كان يطمع أن يسكن إليها ويجد بين يديها مودة ورحمة ، كما ملأ الحنق نفسه لما أصاب كبرياءه برفضها العودة إليه وإهانتها رسوله ، وقد كان يظن أن نصيحة أمها وحزم أبيها سيعودان بها إلى الصواب ... ...

ولا ريب أن ملتن كان يستشعر فى نفسه الخجل والندم كما استشعر الألم ، وذلك أن اختياره مارى پوول متأثراً بمظهرها على هذه الصورة العاجلة إن هو إلا اندفاع العاطفة فى فورة من فوراتها ، وإلا فماذا دفعه إلى هذا الاختيار ولم يك يعرف مارى پوول من قبل حتى يظن أنه آنس فيها من الصفات ما يهتم به شاعر مثله كالذكاء والثقافة وبراعة الحديث وما يتصل بها ؛ وكان خليقاً وهو الذى طالما افتخر بامتلاكه زمام نفسه وطالما اعتقد أنه قادر على كبح جماح عاطفته أبداً ، أن يندم ويألم فقد سيطرت عليه عاطفته ، وتغلب الجسد فى نزوعه الشديد نحو رغبة له اتقدت ، وليته حقق بالزواج تلكُ الرغبة ؛ فلئن تزوج فما هو بمتزوج إذا صح هذا التعبير ، ثم إنه أخذ يطفىء فى نفسه جذوة جسده ووقدة عاطفته مستعينا بالصبر والصوم ؛ ولقد أثر انقياده لعاطفته على هذا النحو على ما كان فيه من كبرياء أثرا عميقا فى حياته وفكره سوف يظهر فى فلسفته وفنه .

ومما زاده غما وألما أنه كان بعد أن هجرته زوجه لا يستطيع بالضرورة أن يتزوج غيرها ، وهذا فى ذاته قيد ، وإن نفسه لتنفر من كل قيد وتستعصى على كل قيد ؛ وهل كان يستطيع أن يحمل نفسه على قبول هذا القيد لأن الدين أو لأن الكنيسة تحول بينه وبين الطلاق إلا وفق شروط معينة ؟ ومتى خضع إلا لما يهديه إليه فكره ، وقد نزع إليه وجدانه وتعلق به إيمانه ؟ وإذا كان هو نصير الحرية الذى دافع عنها أمام تعصب القساوسة فكيف يتخاذل عن نصرتها الآن ؟ ألا يستطيع أن يدع الجانب الشخصى من فشله فى زواجه فلا يتعرض له ثم يخلق من الحادثة فى ذاتها موضوعا عاما ؛ فيكتب دفاعا عن الحرية فى ناحية من نواحيها وأعنى بها الناحية الشخصية ؟ بلى إنه لقادر على ذلك وإنه لفاعله ، وإنه لنصير الحرية الشخصية اليوم .

ويمكننا أن نتصور حالته النفسية فى هذا الموقف ، فهذا رجل ذو كبرياء وأنفة ، طالما افتخر بتغلبه على شهوات نفسه ، وقد عاش حتى الخامسة والثلاثين من عمره عيشة الطهر والعفة مستعينا بعزمه المصمم على قهر وساوس الشباب ، يسمو فى طهره على الناس ليكون أهلا لرسالته التى يستشرف لها ، ويقبل على دراساته ليهيأ لما يتطلع إليه ، ثم إذا به يجد نفسه ، وقد ارتطم فى ورطة بسبب انقياده لعاطفته بعد طول امتناع ، ولئن كان ما وقع فيه لم يعد كونه أمرا مشروعا هو الزواج ، إلا أن فشله فى اختيار زوجته كان نتيجة تسلط عاطفته على عقله أو تغلب جسده على روحه ، وإن ذلك ليشعره بينه وبين نفسه أنه لم يعد إنساناً كسائر الناس ؛ ولكم نال ذلك من كبريائه وأدخل الغم على نفسه ، فضلا عن أن ما انتهى إليه إنما هو حد من حريته .

على أن كبرياءه تأبى عليه إلا أن يلتمس مخرجا لنفسه فما يطيق أن يذعن ، ويجد ذلك المخرج فى تقريره أن العاطفة فى ذاتها من الأمور المشروعة التى وضعها الله فى الإنسان ، وما لم تنطو على جريمة فلن يضير المرء أن تقوده إلى خطأ ؛ ويستنكف أن يشير إلى مسألته الشخصية ، فيعمد إلى فلسفة عامة فى الزواج والطلاق ينفس بها عن نفسه ويرأب بها ما تصدع من كبره ، فإذا كانت العاطفة أمرا مشروعا فوجب أن تكون العلاقة بين الزوجين على أساسها ، فيكون الزواج اتفاق عاطفتين أو التقاء روحين ، فإن كانت العلاقة على غير هذا الأساس ، وكانت مجرد التقاء جسدين ، أو كانت العاطفة من ناحية لا تقابلها مثلها فى الناحية الأخرى بطل الزواج ووجب الطلاق ؛ وهو إنما يتكىء بذلك سببا للطلاق لم يتجه إليه أحد قبله ، ومرده إلى المنطق لا إلى

شريعة سماوية أو قانون بشرى ؛ على أن كلامه هذا فى الوقت نفسه ينطوى على تأنيب منه وزجر لنفسه ، وإلا فهل فكر قبل اختياره مارى هل كانت عاطفتها تجاوب عاطفته ، أم كان الأمر أمر افتتان بها لم يتمالك عنده نفسه ؟ وإذا فهو الملوم وحده .

ولكنه يقدر وقوع الخطأ ، فقد يخدع الإنسان فيمن يخطبها لتكون زوجه ، ويحس أنها تبادله عاطفة بعاطفة ؛ فإذا وقع الخطأ فعلا فما السبيل إلى تجنب ما يجره ذلك الخطأ من عواقب هى شر منه ؟ لا سبيل فى رأيه غير الطلاق ، وإلا فكيف يتباعد الزوجان ولا يستطيع كلاهما أن يتزوج غير الآخر ؟

بهذه الآراء البالغة الجرأة والخطر فى أمر له أهميته وخطورته فى المجتمع قذف ملتن الناس فى كتيب نشره فى أغسطس سنة ١٦٤٣ وسماه « قانون الطلاق ونظامه » ، ولم يك غافلا عما كانت مثل هاتيك الآراء خليقة أن تثيره من سخط وغضب ودهشة تشبه الجزع فى الأوساط جميعاً ، ذلك أنه كان يدرك أنه كان طلعة فى تناول الموضوع على هذا النحو ، ولكنه كما يقول الانجليز أحرق القوارب كلها من ورائه وليس يبالى أيبلغ ما يريد أم يهلك دونه .

ويزخر هذا الكتيب بحماسة شاعر عظيم تدفعه للكلام روح قوية نبيلة وألم يملأ جوانحه لما لحق كبرياءه ، وغضب عاصف كما هاج البحر ثائراً كما تأججت النار ، ولذلك تقع فيه على مظاهر الحماسة قوية رائعة ، فيرسم الشاعر طائفة من المثل العليا للحياة الزوجية ، ويصور الألم والخيبة التى تعقب الزواج الفاشل ، ويبدع إذ يستند إلى المنطق والعقل فى براهينه ، وإذ يسوق الأدلة التى تؤيد رأيه من الانجيل ، وإذ ينقض ما ينهض فيه حجة عليه ، ويبلغ ذروة الإقناع والفصاحة إذ يدعو إلى تحرير العقل من حرفية القانون ، وهو فى ذلك كله يصل من البلاغة إلى ما لم يصل إليه فى كل ما كتب قبله ، والحق أنك تجد فى هذا الكتيب ملتن الرجل وملتن الفيلسوف وملتن الشاعر على خير ما يكون من حالاته فى ذلك جميعاً وإن كان النثر وسيلته وأداته .

وكان يعتقد ملتن أنه خرج من الشر الذى لحقه بخير يسوقه للناس جميعاً ، فهو يخيل إليه أن ماانتهى إليه من رأى فى الطلاق إنما هو خلاص للبشر من قيد بغيض ظالم يوبق أرواحهم ويريهم مثل حياة الجحيم فى هذه الدنيا ، وذلك هو معيشة الزوجين معاً على رغمهما لأنهما ارتبطا برباط الزواج .

وكانت تخف عنه آلام نفسه كما ذكر أنه إنما يكتب ما يكتب ليخفف عن الناس آلامهم ، فلا ضير أن يتحمل الألم ما دام الناس سيفيدون مما حاق به من سوء المصير ، على أنه أنفة منه وتكبراً حريص على الايشير بشىء إلى مسألته الشخصية .

(يتبع) الخفيف

بمناسبة حال العمال اليوم :

واجبات الانسان ...

للزعيم الايطالي يوسف مزيني

بقلم الأستاذ عامر عبد الوهاب

نشر مزيني هذا المقال عام ١٨٦٠ موجهاً كلامه إلى الطبقة العاملة في إيطاليا قال : أود أن أتحدث إليكم عن واجباتكم ، وأود أن أتحدث إليكم كما يوحى إلى قلبي عن أقدس ما نعرف من الأشياء : عن الله سبحانه تعالى ، وعن الإنسانية والوطن والأسرة . اصغوا إليّ إصغاء محبة ، كما سأتحدث إليكم حديث مودة . إن كلماتي لهي كلمات اليقين الذي صهرته السنون الطوال التي قضيتها في كد ونظر ودرس . واعلموا أني أبذل قصارى جهدي في تأدية الواجبات التي سأشرحها لكم وسأستمر في تأديتها إلى آخر رمق من حياتي . قد أخطئ ولكن قلبي متشبع بالحق . قد أخدع نفسي ولكني لن أخدعكم ، لذلك أرجو أن تستمعوا إليّ كأخ ، ولكم أن تحكموا بحرية فيما بينكم إن كنت أتكلم بلسان الحق . واهجروني إذا ما شعرتم أني أنطق عن الهوى ، ولكن اتبعوني وسيروا على نهج خطتي إذا ما تبين لكم أني رسول صدق مبين . إن الخطأ بلية تستحق الإشفاق ، ولكن إذا عرف الإنسان الحق ولم يهتد بهديه في أعماله ، فذلك جرم تستنكره السموات والأرض !

لما ذا أتحدث إليكم عن واجباتكم قبل أن أتحدث إليكم عن حقوقكم ؟ لما ذا وأنتم تعيشون في مجتمع يتفنى كله الإجحاف بكم طوعاً أو كرهاً ، وفيه يحرم عليكم دواماً أن تمارسوا الحقوق التي تخص الإنسان ، والذي كتب فيه أن يكون البؤس نصيبكم ، وما يعرف بالسعادة من حظ غيركم من الطبقات ؟ لما ذا أخاطبكم عن التضحية لا عن الغلبة ، أخاطبكم عن الفضيلة والتهذيب الخلقي والتربية لا عن الرفاهة المادية ؟ هذه مسألة لا بد لي أن أشرحها قبل أن أتابع حديثي ، لأنه هنا يتبين الفارق الحاسم بين نظريتنا وبين النظريات الأخرى التي تشيع الآن في أوربا . هذا فضلا عن أنها مسألة يضطرم بها العقل المتبرم ، عقل العامل المتألم !

« نحن فقراء مستعبدون أشقياء ، فتحدث إلينا عن أحوال أنعم من حالنا ، وكذلك تحدث إلينا عن الحرية والسعادة . نبئنا إن كان مقضياً علينا أن نذوق البلاء إلى الأبد ، أو أننا سنترفه بدورنا . توجه بحديث الواجب إلى سادتنا ، إلى الطبقات المتحكمة فينا والتي تعاملنا معاملة الآلات ، والتي تحتكر لنفسها الخيرات التي هي حق للجميع . تحدث إلينا عن الحقوق وعن الوسائل التي تؤيد هذه الحقوق ، كما تحدث إلينا عن قوتنا . انتظر حتى نظفر بمكانة يعترف بها ، وحينئذ يجمل بك أن تخاطبنا عن الواجبات والتضحية »

هذا ما يقوله كثير من رجالنا العاملين وهم يتابعون الأساتذة والهيئات التي تساير ميولهم . هم ينسون شيئاً واحداً فقط ، ذلك أن النظرية التي يثيرونها قد دان بها الناس منذ خمسين عاماً دون إحداث أي أثر من الاصلاح المادي في حالة الشعب العامل .

إن كل ما حدث في الخمسين عاماً الماضية في سبيل الخير والفلاح ضد الحكومات المطلقة والأرستقراطية الوراثية ، إنما حدث باسم حقوق الإنسان ، باسم الحرية كوسيلة ، وباسم الصالح العام كغاية الوجود ، فكل أحداث الثورة الفرنسية ، بل وجميع الثورات التي تبعتها وقلدتها كانت نتائج (إعلان حقوق الانسان). وإن جميع مؤلفات الفلاسفة الذين مهدوا لها كانت تقوم على نظرية الحرية وعلى قاعدة تعريف كل فرد ما له من الحقوق . إن جميع المدارس (المذاهب) الثورية نادت بأن الانسان قد خلق للسعادة ، وبأن له الحق في أن يسعى لها بكل ما يملك من الوسائل ، وأن لا حق لغيره في أن يصده عن هذا المسعى ، كما أن له الحق في أن يزيل كل ما يصادف من العوائق في هذا الطريق . ولقد زالت العوائق وتحققت الحرية ودامت سنين في بلاد كثيرة ولا تزال كائنة في البعض ، فهل تحسنت حال الشعب ؟ وهل حققت الملايين التي تعيش بكدحها اليومي أتفه نصيب من الهناءة التي رجوها والتي وعدوا بها ؟

كلا ، فحالة الشعب لم تتحسن ، بل لقد زادت ولا تزال تزيد سوءاً في كل بلد تقريباً ، وعلى الأخص هنا (في إيطاليا) ، حيث أسجل أسعار حاجيات المعيشة التي أخذت في الارتفاع ، وأجور الطبقة العاملة التي هبطت في كثير من فروع الصناعة ، بينما

السكان آخذون فى الازدياد .

ولقد اشتدت حال العمال زعزعة واضطراباً فى كل بلد تقريباً كما ازدادت أزمات العمل التى قضت بالعطل والتحول على آلاف من العمال ، وإن الزيادة السنوية فى تعداد المهاجرين من قطر إلى قطر ، ومن أوربا إلى النواحى الأخرى من العالم ، والزيادة المستمرة فى عدد الجمعيات الخيرية ، والزيادة فى مخصصات الفقراء ومساعدات المعوزين ، كل أولئك كاف فى إثبات ما نقول ، والشاهدان الأخيران يدلان كذلك على أن العناية العامة آخذة فى التيقظ لآلام الشعب ، ولكن عجزهم عن تخفيف هذه الآلام إلى أى حد محسوس يدل على استمرار مروع فى شيوع الفاقة بين الطبقات التى يجهدون فى معاونتها

ومع ذلك فالواقع أنه حدث فى الخمسين عاماً المنصرمة أن زادت ينابيع الثروة العامة ، وكثرت خيرات الحياة ، وتضاعف الإنتاج ، واشتد نشاط التجارة ، واتسعت دائرتها وسط الأزمات المتلاحقة التى لا مفر منها إذا انعدم النظام . كما أن المواصلات أصبحت مأمونة وسريعة فى كل مكان تقريباً ، وهبطت أسعار السلع بسبب انخفاض أجور النقل . ومن جهة أخرى ، فنحن نرى الآن كيف أن فكرة الحقوق المتأصلة فى الطبيعة الإنسانية أضحت مقبولة على العموم

نعم مقبولة ، ولكن لفظاً وخداعاً ، حتى عند أولئك الذين يسمون فى اجتنابها فعلا . فلما ذا لم تتحسن حال الشعب ؟ ولما ذا نرى استهلاك المنتجات بدلا من أن يكون مقسطاً على السواء بين جميع أعضاء المجتمع الأوربى نراه محصوراً فى أيدى فئة قليلة تكون أرستقراطية جديدة ؟ ولما ذا نرى الانتعاش الذى أصاب التجارة والصناعة لم يؤد إلى يسر الأكثرية ، بل إلى ترف الأقلية ؟

إن الجواب يتضح لأولئك الذين يمعنون النظر قليلا فى الأشياء . فالناس نتاج التربية . وهم فى سلوكهم يصدرون عن مبدأ التربية الذى طبعوا عليه ؛ فالرجال الذين ألهبوا نيران الثورات حتى اليوم إنما أثاروها بوحى فكرة حقوق الفرد . وها قد حققت هذه الثورات أمنية الحزبية : الحرية الشخصية ، وحرية التعلم ، وحرية الاعتقاد ، وحرية التجارة ؛ بل الحرية فى كل شىء ولكل إنسان ولكن ما فائدة إعلان الحقوق لمن لا يملك وسيلة لاستخدامها ؟ وماذا تعنى حرية التعليم لأولئك الذين لا يجدون وقتا أو واسطة للانتفاع بها ؟ أو حرية التجارة لمن لا يملك شيئا يتاجر به ، لا رأس المال ولا النسيئة (الائتمان) ؟ بل لقد حدث فى جميع البلاد التى أعلنت فيها هذه المبادىء أن المجتمع كان يتكون من فئة تمتلك الأرض وتحوز النسيئة ورأس المال ومن جماهير غفيرة لا تملك غير أيديها ، وكان عليها أن تزاول الأعمال اللازمة للطبقة السالفة على أية شرائط حتى يتسنى لها أن تعيش كما كان عليها أن تصرف اليوم كله فى الكدح الآلى المطرد الممل . فهل كانت الحرية بالنسبة لهؤلاء الذين قضى عليهم أن يكافحوا الجوع سوى خدعة غادرة وسخرية لاذعة ؟ أما لو كان القصد من الحرية شيئا خلاف ذلك ، لكان إذن يتعين على الطبقات المترفة أن توافق على تقليل ساعات العمل وزيادة الأجر وتعمل على نشر التعليم المجانى المماثل للجماهير ، كما تسعى فى جعل أدوات العمل فى متناول الجميع ، وأن تقدم مكافآت مالية للعمال الذين تثبت كفايتهم ونبل غايتهم .

ولكن لماذا يتعين عليهم أن يقوموا بذلك ؟ ألم تكن الرفاهية الغرض الأسمى من الحياة ؟ ألم تكن الخيرات المادية مرغوبة قبل كل شىء آخر ؟ لماذا ينتقصون من حظهم هم لأجل نفع غيرهم ؟ أليس على كل إنسان أن يساعد نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وإذا ما كفل المجتمع حرية استخدام الحقوق الإنسانية لكل من توفرت فيه القدرة على ذلك ؛ فيكون حينئذ قد أدى كل ما يطلب منه . أما إذا كان هناك أى فرد يعجز بحكم ظروفه القهرية عن استخدام أى حق من هذه الحقوق ، فما عليه إلا أن ينسى حساب نفسه ولا يلوم سواه .

لقد كان من الطبيعى أن يصرحوا بذلك ، وفعلا فقد صرحوا به . وهذا الاتجاه العقلى الذى ساد الطبقات المميزة بالثراء والذى تحكم فى نظرها إلى الفقراء سرعان ما أصبح الوجهة التى انتهجها كل فرد نحو الآخر . فعنى كل إنسان بحقوقه هو وبترقية حاله دون السعى فى إعانة غيره . وإذا اصطدمت حقوقه بحقوق سواه حينئذ تكون حرب ، لا حرب الدماء ؛ بل حرب الذهب والخداع . حرب أدنى شهامة ورجولة من الأخرى ؛ ولكنها

تعدلها في الدمار، وبالها من حرب وحشية لا يألو فيها من وفرت وسائله، وبزت قوته في سحق الضعيف أو الأخرق سحقا لا هوادة فيه. وفي حومة هذا القتال المستمر أشربت قلوب الناس الأنانية، والشره في استلاب خيرات الحياة لذواتها دون غيرها. وهكذا كانت حرية الإعتقاد معولا يهدم صرح الإيمان كما كانت حرية التعليم سببا في بث الفوضى الخلقية. أليس من شأن الناس إذا فقدوا رابطة مشتركة، وانعدمت من بينهم وحدة العقيدة الدينية، ووحدة الغرض، وصارت الهناءة بغيتهم الفريدة؛ أليس من شأنهم حينئذ أن يسعى كل منهم في سبيله الخاص دون النظر فيما إذا كان في ذلك عدوان على إخوانه. إخوانه إسما وأعدائه فعلا؟ هذه هي الحال التي صرنا إليها اليوم بفضل (نظرية الحقوق).

يقينا إن الحقوق كائنة؛ ولكن حيث تصطدم حقوق فرد بحقوق آخر، كيف نستطيع أن نأمل التوفيق والتسوية بينها من غير الاستناد إلى شيء أسمى من جميع الحقوق؟ وحيث تتعارض حقوق فرد أو أفراد كثيرين وحقوق الوطن فإلى أية محكمة ندعى؟ إذا كان الحق في الرفاهية في أقصى حدودها يتقسط كل شخص حي فمنذا يفض النزاع بين العامل وصاحب العمل؟ وإذا كان الحق في الحياة هو أول وأقدس حق لكل إنسان، فمنذا يطلب تضحية هذه الحياة لمنفعة بقية الناس؟ أستطلبونها باسم الوطن أم باسم المجتمع أم باسم فريق من إخوانكم؟ ما الوطن في نظر من أتحدث عنهم سوى البقعة التي نضمن فيها حقوقنا الذاتية كل الضمان. وما المجتمع سوى مجموعة من الناس الذين اتفقوا على استخدام قوة الكل لتأييد حقوق كل فرد؟

وهل بعد أن علمت الفرد مدة خمسين عاما أن المجتمع إنما يقوم على غرض تأمينه على ممارسة حقوقه، هل بعد ذلك تطلب إليه أن يضحي بها جميعا في سبيل المجتمع وأن يستسلم إذا دعت الضرورة إلى الكدح المتواصل أو السجن أو النفي باسم إصلاح المجتمع؟ وهل بعد أن بشرته في كل مكان بأن غرض الحياة هو الخير والهناءة، هل بعد ذلك تأمن أن ينصرف عن هذا الخير بل وعن الحياة نفسها ليحرر وطنه من الأجنبي أو أن يجهد في إسعاد طبقة لا تربطه بها صلة؟ وكيف بعد أن تحدثت إليه أعواما عن الفوائد والمصالح المادية تستطيع أن تحرم عليه وقد ألفى الثروة والجاه في متناول يديه أن يمد تينك اليدين ليأخذ حظه منهما حتى ولو كان في ذلك ضرر لإخوانه؟

أيها العمال الإيطاليون. ليس ذلك من خواطر فكري المجردة عن حقائق الواقع بل هو تاريخ عصرنا نحن. ذلك التاريخ الذي تسيل على صفحاته دماء الشعب. سلوا جميع الرجال الذين حولوا ثورة سنة ١٨٣٠ إلى مجرد تغيير طائفة من الأشخاص بأخرى. بل وإن شئتم مثالا فإنهم اتخذوا من جثث إخوانكم الفرنسيين الذين راحوا ضحية قتال (الثلاثة أيام) مدارج يرتقون عليها إلى عرش العظمة والسلطان. إن جميع مبادئهم إلى ما قبل عام ١٨٣٠ كانت تقوم على تلك النظرية العتيقة نظرية حقوق الإنسان لا على عقيدة الإيمان بواجباته. إنكم تدعونهم اليوم خونة مارقين، ولكنهم في الحقيقة لم يكونوا إلا مصدقين لنظريتهم مستمسكين بها. فجاهدوا أخلص الجهاد ضد حكومة شارل العاشر لأن تلك الحكومة كانت شديدة العداء للطبقات التي نشأوا منها حتى انتهكت حقوقهم وبالغت في حرمانهم منها، وحاربوا باسم الرفاهية التي لم ينعموا منها بالقدر الذي ظنوا أنه يجب أن ينعموا به. فعذب البعض بسبب حرية الفكر. ووجد آخرون من ذوي العقول الجبارة أنهم منسيون مبعدون من الوظائف التي يشغلها ناس دونهم كفاية. ثم زادتهم مظالم الشعب حرقة وغضبا، فشرعوا يكتبون في جرأة وإيمان عن الحقوق التي تلزم لكل إنسان. بيد أنهم لما أمنوا على حقوقهم السياسية والفكرية، وانفتح أمامهم سبيل الوظائف، وتحققت لهم الرفاهية التي سعوا من أجلها حينئذ نسوا الشعب. نسوا أن الملايين التي تقل عنهم ثقافة وطموحا. كانت تجاهد لتقرر حقوقا أخرى، وتحقق هناءة من نوع آخر، وأخلدوا إلى الطمأنينة، ولم يعودوا يهتمون بأحد غير أنفسهم. لماذا تدعونهم خونة. أليس الأجدر أن تدعوا نظريتهم نظرية غادرة؟

(البقية في العدد القادم) عامر عبد الوهاب

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٧٨٤ — النبي والفيلسوف

الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي :

إن أبا سليمان (المنطقي السجستاني — محمد بن بهرام — يقول : … صاحب الشريعة مبعوث ، وصاحب الفلسفة مبعوث إليه ، وأحدهما مخصوص بالوحي ، والآخر مخصوص ببحثه ، والأول مكفيّ ، والثاني كادح ، وهذا يقول : أُمرت وعُلّمت ، وقيل لي ، وما أقول شيئاً من تلقاء نفسي . وهذا يقول : رأيت ونظرت واستحسنت واستقبحت ، وهذا يقول نور العقل أهتدي به ، وهذا يقول : معي نور خالق العقل أمشي بضيائه . وهذا يقول : قال الله وقال الملك ، وهذا يقول : قال أفلاطن وسقراط .

٧٨٥ — لقد جئتم شيئاً إدا !

رسالة الغفران لأبي العلاء :

حكى لي عن بعض ملوك الهند وكان شابا حسنا أنه جدر فنظر إلى وجهه في المرآة وقد تغير فأحرق نفسه ، وقال : أريد أن ينقلني الله إلى صورة أحسن من هــذه . وحدثني قوم من الفقهاء ما هم في الحكاية بكاذبين ولا في أسباب النحل جاذبين أنهم كانوا في بلاد محمود وكان معه جماعة من الهنــد قد وثق بصفاتهم ، يفيض عليهم الأعطية لوفائهم ، ويكونون أقرب الجند إليه إذا حل أو إذا ارتحل وأن رجلا منهم سافر في جيش جهزه ، فجاءه خبره أنه قد هلك بموت أو قتل فجمعت امرأته لها حطباً كثيراً ، وأوقدت ناراً عظيمة ، واقتحمتها والناس ينظرون ، وكان ذلك الخبر باطلا ، فلما قدم الزوج أوقد له ناراً جاحمة ليحرق نفسه حتى يلحق بصاحبته ، فاجتمع خلق كثير للنظر إليه وأن أصحابه من الهند كانوا يجيئون إليه فيوصونه بأشياء إلى أمواتهم هذا إلى أبيه وهذا إلى أخيه ، وجاءه إنسان منهم بوردة وقال : أعط هــذه فلاناً يعني ميتاً له ، وقذف نفسه في تلك النار . وحدّث من شاهد إحراقهم نفوسهم أنهم إذا لدغتهم النار أرادوا الخروج فيدفعهم من حضر إليها بالعصى والخشب . فلا إله إلا الله ، لقد جئتم شيئاً إدّا ! ! !

٧٨٦ — فضح الموت الدنيا

في (شرح النهج) لابن أبي الحديد : قيل لخالد بن صفوان : من أبلغ الناس ؟

قال : الحسن[1] لقوله : فضح الموت الدنيا !

٧٨٧ — وبقيت الدنيا

وقف بأبي العيناء رجل من العامة فأحس به فقال من هذا ؟

قال : رجل من بني آدم .

قال : مرحباً بك . أطال الله بقاءك ، وبقيت في الدنيا ما ظننت هذا النسل إلا قد انقطع .

٧٨٨ — إياك أن تلقى الله كذاباً بخيلا

في (كتاب المنظوم والمنثور) لأحمد بن أبي طاهر : قال بعض الأعراب مررت يوم عرفة ببيت ، بطُنُبه[2] كبش مربوط ، فسمعت رجلا في البيت يقول : وا سوءتي من ضيفنا هذا ! أتانا وما عندنا ما نقربه إليه . فقالت له امرأته : أبافلان ، إياك أن تلقى[3] الله كذابا بخيلا ! أوليست هذه شاتك مربوطة بفنائك ؟

(١) في (الوفيات) : قال أبو عمرو بن العلاء : مارأيت أفصح من الحسن البصري ومن الحجاج بن يوسف الثقفي . فقيل له : فأيهما كان أفصح ؟ قال : الحسن .

(٢) الطنب : حبل الخباء ، البيت .

(٣) إياك أن تلق الخ : من أن تلقي كما في شرح الكافية وابن عقيل وفي (كتاب سيبويه) : لايجوز أن تقول إياك زيدا وكذلك أن تفعل إذا أردت إياك والفعل فاذا قلت إياك أن تفعل تريد إياك أعظ مخافة أن تفعل أو من أجل أن تفعل جاز ، وإذا قلت : إياك الأسد تريد من الأسد لم يجز كما جاز في أن ، إلا أنهم زعموا أن ابن إسحق أجاز هذا البيت في شعر :

إياك إياك المــراء فانه ... إلى الشر دعاء وللشر جالب

كأنه قال : إتق المــراء . قال الشنتمري : إسقاط حرف العطف ضرورة والمعروف في الكلام إياك والمراء وإياك والأسد ولا يجوز إياك الأسد ، وفي (البدرة وشرحها) كلام في ذلك

قال : هذه نسيكتي غداً .

قالت : وأيّ نسيكة أعظم أجراً ، وأحسن ذخراً من ذبحك إياها لضيفك .

٧٨٩ — بالتوهم . . .

فى (الأغانى) : كان كثير (الشاعر) كيسانياً يرى الرجعة ، وكان يزعم أن الأرواح تتناسخ ويحتج بقول الله تعالى (فى أى صورة ما شاء ركبك) ويقول : ألا ترى أنه حوله من صورة فى صورة . ولما قال — وهو يعنى محمد بن الحنفية — :

هو المهـدى خبرناه كعب   أخو الأحبار فى الحقب الخوالى

قيل له : ألقيت كعبا ؟ قال : لا . قيل : فلم قلت : خبرناه كعب ؟ قال : بالتوهم …

٧٩٠ — فكان الخسوف حداداً على فقده

قال بعض المؤرخين : مما يدل على ظَرف محمد بن أحمد الحداد الوادى آشى[١] أنه فقد سكناً[٢] عزيزاً عليه ، واحتاج الحال إلى تكلف سلوة ، فلما حضر الندماء وكان قد رصد خسوف القمر فلما حقّق أنه قد ابتدأ أخذ العود وغنى :

شقيقك غُيِّب فى لحـــده   وتُشرق يا بدر ، من بعده

فهلا خسفت فكان الخسوفُ   حداداً لبستَ على فَقْدِه[٣]

وجعل يردد الشعر ، ويخاطب البدر ، فلم يتم ذلك حتى اعتراه الخسوف ، فعظم من الحاضرين التعجب .

٧٩١ — إنها شهادة يا فتح . . .

قال صاحب الحدائق : إن الفتح بن خاقان ذكر الوزير ابن الصائغ الفيلسوف فى قلائد العقيان[٤] فقال فيه : (هو رمد جفن الدين ، وكمد نفوس المهتدين . يعتقد أن الزمان دور ، وأن الإنسان نبات له نَور ، حمامه تمامه ، واختطافه اقتطافه) فبلغ ذلك ابن الصائغ فمر يوما على الفتح بن خاقان وهو جالس فى جماعة فسلم على القوم وضرب على كتف الفتح وقال : (إنها شهادة يا فتح) ومضى ولم يدر أحد ما قال للفتح . فتغير لونه ، فقيل له : ما قال لك ؟ فقال : إنى وصفته — كما تعلمون — فى (قلائد العقيان) فما بلغت بذلك عُشر ما بلغ منى بهذه الكلمة ، فانه أشار إلى قول المتنبى :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص   فهى الشهـادة لى بأنى كامل

٧٩٢ — صارف الهم

ابن المنارقى :

لا يصرف الهم إلا شدو محسنة   أو منظر حسن تهواه أو قدح

٧٩٣ — ما وجد بريداً غيرك

جاء رجل إلى وهب فقال : إن فلانا شتمك .

فقال : أما وجد الشيطان بريداً غيرك .

قال رجل لحكيم : عابك فلان بكذا .

فقال : لقيتنى لِقِحتكَ بما لم يلقنى به لحيائه .

٧٩٤ — من فى مسيلمة . . .

صلى أعرابى بقوم فقرأ :

أفلح من هينم فى صلاته
وأخرج الواجب من زكاته
وأطعم المسكين من مخلاته

فضحك القوم فالتفت إليهم وقال :

أشهد أنى أخذته مِن فِى مسيلمة .

٧٩٥ — سوى أن يرى الروحان يمتزجان

ابن الرومى :

أعانقها والنفس بعد مشوقة   إليها وهل بعد العناق تدان

وألثم فاها كى تموت حرارتى   فيشتد ما ألقى من الهيمان

ولم يك مقدار الذى بى من الهوى   ليشفيه ما ترشف الشفتان

كأن فؤادى ليس يشفى غليله   سوى أن يُرى الروحان يمتزجان

---

(١) نسبة إلى وادى آش . فى (النفح) من أعمال غرناطة وادى آش ويقال وادى الأشات وهى مدينة جليلة قد أحدقت بها البساتين والأزهار وقد خص الله أهلها بالأدب وحب الشعر .

(٢) سكنت إلى فلان : استأنست به وفلان سكنى من الناس (الأساس) والسكن كل ما سكنت إليه واطمأننت به من أهل وغيره (اللسان) .

(٣) خسف القمر : ذهب ضوؤه ، وخسف بالبنا على ما لم يسم فاعله .

(٤) لما عزم الفتح على تصنيف (قلائده) فاوض ملوك الأندلس ووزراءها وأعيانها من أهل الأدب ، وسألهم إنفاذ شيء من أقوالهم ، وكانوا يعرفون شره وثلبه ، فجاءته الأقوال والأموال .. ولم يحفل ابن الصائغ به . فسطر فى (القلائد) ما سطر .

رباعيات عثمان . . .

للأستاذ عثمان حلمي

كنتُ يوماً أسمى على غيرقصد — أتملى حسنَ المدينة وحدى
ليس لى غايةٌ ولا كنتُ أسمى — لمكان يممته أو لوعد
خالىَ النفس من تكاليف نفسى — لا أرى أن أسومها أىَّ جهد
غير سخرى بمن أراه من النا — س لمن يستحق سخرى ونقدى

فإذا بى أمام بنيان دارِ — طمستْ زهوَها يدُ الأقدارِ
كتبَ الليلُ والنهارُ عليها — أسطراً لا تروق فى الأنظار
أمسها غيرُ يومها وبعيدٌ — بين محض الصفاء والأكدار
فلقد أيقظتْ دفائن نفسى — وأثارتْ مرارة التذكار

هى كانت بالأمس لى مهد درسى — وبعيدٌ ما بين يومى وأمسى
وبعيدٌ بين الطفولة فى الخلـ — ـق وبين المشيب فى كل نفس
وبعيدٌ بين الأزاهر والشو — ك بعيد فى كل ذوق وحسّ
وبعيد بين النضارة والقبـ — ـح وبين المنى وبين التأسى

كلُّ شىء فوق الثرى للفناء — من ضروب الجماد والأحياء
لا حفيظ من الليالى إذا جدّ — ت ولا فى بقائها من بقاء
بيديها معاولُ الهدم أيا — نَ وأنّى اغتدتْ يدُ البنّاء
ساخرات بالممس فى كل حال — من غرور الضحوك والبكّاء

ههنا ههنا قضيتُ قليلا — من حياتى ضحكتُ فيها طويلا
ما عرفتُ الهمومَ فيه ولا كنـ — ـتُ أرى فى طفولتى مستحيلا
مشرق الوجه كالصباح جميل الـ — ـنفس لا أستحب إلا الجميلا
بين لهوى البرىء والدرس لا أد — رك للهمّ فى الحياة سبيلا

نوّرى يا نضارةَ الأطفال — فجمالُ الحياة فى الأطفال
واسخرى بالوقار والجدّ والآ — لام سخراً وبالأسى والملال
فترة أنتِ فى الزمان إذا مرّ — تْ سريعاً رجوعها فى المحال
فإذا عدت فى الخيال وفى الذكـ — ـرى كفانى الرضى بهذا الخيال

هاهى الساحة التى كنتُ أجرى — بينها خلف صاحبٍ لىَ يجرى
لم تزل تعبث الطفولة فيها — عبثاً لم يُشبْ بلؤم ومكر
هٰهنا ضاحك وها هوَ لاهٍ — طافح النفس من صفاء وبشر
وهنا لاعبٌ وها هو غرٌّ — لم تَنَر وجهه ابتسامةُ ثغر

هذه صورةٌ أعادتْ لذهنى — كلَّ ما مرّ فى الطفولة منّى
فتأملتُ كيف تجرى حياةُ الـ — ـناس جرياً مابين وهْن ووهن
يرجع الشيخ مثلما كان طفلا — شادخ النفس فى الهدى والتأنى
وتظل الأيام فى نشوة الدهـ — ـر على نغمة الفناء تغنّى

أيها الطفل لا يسؤْك خطابى
وامض إن عشت فى سبيل الشباب
حفنة أنتَ من صميم التراب — جُبِلتْ من متاعبٍ وعذاب
فتقبّل فيها وجودَك واجعـ — ـلك حصناً منها منيع الجناب
وليكن فى كيان جسمك قلب — وادعٌ طاهرٌ كماء السحاب

سوف تدرى مرارةَ الحرمان — وتُعانى قساوة الإنسان
وتُعانى من التجارب ما عا — نيتُ منها وما لبثتُ أُعانى
كلما دارتْ الليالى تعلمـ — ـت جديداً من مستجدّ الزمان
وتعلمت كيف يسخَر بالحـ — ـق دعاة الضلال والبهتان

ستُعانى تضارب الأهواء — من ضروب الصحاب والأعداء
وتغيم الشكوك فى جو إيما — نك سوداً تحكي غيوم السماء
وترى عينُك الكريه وكم تسـ — ـمع ما لا يروق فى الأنباء
مقبلٌ أنت فى الصباح بما أمّـ — ـلت فيه ومدبرٌ فى المساء

سوف تطوى بالرغم عنك الشبابا — ذاهباً حيث لا تُرجّى إيابا
حيث يأتيك منذرٌ من بياض الشـ
ـيب يطوى عن مقلتيك الحجابا
بعد جمٍّ من الصعاب وقد آ — منتَ أن الحياة كانت صعابا
وتلفت لم تجد غير نفس — قدّمتْ عنك للزمان حسابا

ستلاقى من الأسى ما تلاقى — ثم تمضى والهم فى الأرض باق

وترى الحكمة انجلت فى اختلاف الـ
ـناس أو فى تفـــاوت الأرزاق
وهنا لا ترع من العيش إن جا ... هدت يوماً وعدت بالإخفاق
لك أن لا تنام فى طلب الرز ... ق ولو ذُقتَ فيه مرّ المذاق

لهفَ نفسى على النضارة لهفى ... وعلى القوة استحالتْ لضعف
وعلى الطلعة المليحـــة والقـــدّ وما يظهر الشباب ويُخفى
بُدلّ الحسن فيك بالرغم عن أنفـــك قبحاً شهدته رغم أنفى
فتأمل إن عشتَ وجهك فى المر ... آة وابسم واقذف بها أى قذف

ضَحِكتْ منك يا أخى المرآة ... وتجلَّت فى مقلتيكَ السماتُ
فالتجاعيد فى جبينـك والجفـ ... ـنين فيها إذا فطنتَ عظاتُ
والسطور التى كتبن على الخد ... ين عمـا كابدتَهُ مُنبِئاتُ
فتبسم فهكذا تسخر الأيـــام منا وتستبد الحيـــاة

لست أنأى فى الأرض من أن تُمسَّا
لا ولا أنت أرهفُ الناس حسًّا
هذه قسوة الحيـــاة بلونا ... ها وقد أنذرت بما هو أقسى
غامض ما نراه فيهـــا ويزدا ... د غموضاً ما لا نراه وأبسا
عجز الخلق عن معالجة الغيـــب وقد أوسعوه ظناً وحدسا

مصبح فى ســـلامة ثم أمسى
ليس يدرى تحتَ الثرى كيف أمسى؟
حيرةٌ ما لها لدى العقل أفقٌ ... واضح أو لها لدى الرشد مرسى
كيف مات الشباب فى أول العمـــر وعسّ الشيوخُ فى العمر عسًّا
قصة هـذه الحياة فمن شـــاء تأسى أو شاء لا يتأسى

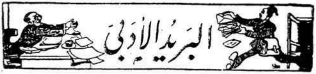
همس الموتُ فى صميمك همسا ... دون علم وسوف يعطيك درسا
فتـــأمل رفاق عمـــرك لمَّا
رُكسوا فى الثرى على الموت ركسا
كلما مات واحد مات جزء ... منك وازددت فى وجودك وكسا
يقطعٌ منك فى التراب توارت ... دسها الموت فى ثرى الأرض دسا

فالذى كان للمجالس أُنسا ... صار للترب والجنادل أُنسا
والذى كان للجمال مثالا ... نكس الدهر حسنه فيه نكسا
والذى كان أجهر الناس صوتاً ... صار لا يستطيع فى القول نبسا
والذى كان للرفاق حبيباً ... ما استطاعوا له على القرب لمسا

كلُّ ما فى الحياة هذا خداعُ ... ظل يُشرى فى سوقها ويباعُ
وتظل العيون تفتنُ بالمظـ ... ـهر فيها وتختَلُ الأسمـــاع
زخرف يستر الحقائق بالبا ... طل فيها ومحض مين يشاع
ما بدا الشر مظلم الوجه إلا ... ستر الظلم الكئيب خداع

كم حياة باسم الحياة تضاع ... ضيَّعتها الأغراض والأطماعُ
ما استطاعت رذيلة أينما كا ... نت ظهوراً أو ساغها الإجماع
فاستعارتْ من الفضيلة ثوباً ... نمَّقته براعةٌ وابتـــداع
رب عات سلاحه أينما يبـ ... ـطش حلم وحكمة واتضاع

عثمان حلمى



في معرض الكتاب العربي :

زرت معرض الكتاب العربي الذي أعدته وزارة المعارف ، فكانت زيارة ممتعة ، لأني حصلت في ساعة ونصف ساعة ما لم أكن لأستطيع أن أحصله في عشر سنوات لو أني عكفت على متابعة تاريخ الكتاب العربي والصحافة العربية

وطفت بأقسامه المتباينة ، فلحظت كيف تطورت الطباعة وتقدمت . كانت الكتب في عهد محمد علي تطبع على ورق عريض ذي هامش واسع ، يحيط بالكتابة إطار مزخرف أو عادي . أما اليوم ، فقلَّ من يُعنى من المؤلفين والناشرين باتباع هذا النظام العتيق !

وشهدت خلاصة تفكير المصريين من أيام محمد علي إلى يومنا هذا معروضة عرضاً شهياً في مكان واحد ، فخلت نفسي في بستان يانع حوى ما دنا من قطوف الثقافة وثمارها

وتأملت كتاباً عنوانه « الأدلة القطعية على عدم دوران الكرة الأرضية » صدر في عهد عباس الأول — إن لم تخني الذاكرة — فأغرقت في الضحك ، لأن ما كان يعده المؤلف إذ ذاك «أدلة قطعية» أصبحنا نعده اليوم «حججاً واهية بالية» !

ورأيت كتاباً آخر عنوانه « وفيات الأعيان » ، فضحكت كذلك لأن مؤلفه لم يجد ما يكتب عنه إلا أن يسرد تواريخ وفيات الأعيان ! كأن الدنيا وما فيها لا تهمه ، وكأن الإصلاح الاجتماعي لا حاجة لنا إليه ، وكأن الكتّاب فرغوا من الكتابة في جميع الموضوعات ، ولم يبق سوى الكتابة عن وفيات الأعيان!

وشاهدت الكتب الأولى للأساتذة : محمد حسين هيكل باشا ، وطه حسين بك ، وأحمد أمين بك ، وأحمد حسن الزيات ، وتوفيق الحكيم ، وسواهم ممن تصدروا الحركة الثقافية المصرية ، فكانت كتباً طريفة

وقرأت في مجلة كان يصدرها الأستاذ سلامة موسى في عام ١٩١٤ — وقد نسيت اسمها — أن الدكتور طه حسين تشرف بمقابلة الخديو قبل سفره إلى فرنسا للدراسة ، فسأله الخديو عما ينوي التخصص فيه فأجاب : في الأدب وتاريخه.

وعاد الخديو يسأله : لماذا لا يتخصص في الفلسفة ؟ فقال الدكتور طه : إن الفلسفة أفسدت الدكتور منصور فهمي (باشا فيما بعد) ! وطبعت المجلة إلى جانب هذه الدعابة صورة للدكتور طه في زيه الأزهري

ورأيت مجلة كان يصدرها « أحمد أفندي لطفي السيد » ، ويشترك في تحريرها « اسماعيل أفندي صدقي » و « عبد العزيز فهمي أفندي » ! !

غير أني لاحظت أن المعرض كاد يكون قفراً من الكتب العربية التي طبعت في البلدان الشقيقة . فلا يشاهد المرء فيه — إلا عرضاً — كتباً لمؤلفين سوريين ولبنانيين وعراقيين وحجازيين وأردنيين وفلسطينيين ، وكان يجدر بوزارة المعارف — ولا سيما المنظمين منها لهذا المعرض — أن تدعو البلدان العربية الشقيقة إلى الاشتراك في هذه الحركة الثقافية المحمودة . والكتاب عادة خير ما يعرف الناس عن الشعوب الأخرى .

وأحسب أن هذه الملاحظة جديرة بعناية وزارة المعارف وسائر الوزارات التي تزمع أن تنظم معارض مماثلة ، فقد أصبح الشرق العربي في وحدة ينبغي العمل على تعزيزها وتنميتها

وليت وزارة المعارف تعنى بأن تنشئ متحفاً للنهضة الثقافية في العالم العربي كمتحف فؤاد الصحي ، أو الزراعي ، أو متحف البريد ، أو متحف الآثار ، ليستطيع المتشوقون إلى الوقوف على النهضة الثقافية وقوفاً عابراً الإفادة من زيارته . والمعروف أن دار الكتب لا يتيسر للمرء فيها أن يلقي نظرة عابرة على ما احتوته خزائنها من مؤلفات ، كما يستطيع رواد المتاحف الأخرى .

وديع فلسطين

نص المحكم في الفعل (كفل) :

رأيت بمناسبة ما دار من البحث حول « كفل المال وكفل به » في الرسالة الغراء أن أطلع على نص كتاب المحكم ، وهو المعجم المشهور للامام ابن سيده في إحدى مخطوطات دار الكتب المصرية ، فإذا هو يقول في الجزء الثامن (في مادة الكاف

والللام والفاء) : « ... وكفل المال وبالمال : ضمنه ، وكفل بالرجل يكفل كفلا وكفولا وكفالة ، وكفل وتكفل به كله ضمنه ، وأكفله إياه وكفله ضمنه »

(ع . م)
(دار الكتب المصرية)

في رباعيات الأستاذ عثمان :

في العدد ٦٧٧ من أعداد الرسالة الغراء اطلعت على « رباعيات عثمان » للأستاذ الشاعر عثمان حلمي ، وعن لي فيها ما يأتي :

يقول الأستاذ الشاعر :

خل دنياك كيف شاءت وصلها ما جنا إن أوسعتك مجونا

والشاهد أن الشطر الثاني بصورته السابقة مكسور ، فقد أسقط الشاعر سبباً خفيفاً من التفعيلة الأولى في الشطر الثاني

وفي بيته :

إن موج الحياة يحمل في مد ه وفي جزره صنوف الهلاك

نراه أضاف سبباً خفيفاً في أول الشطر الثاني منه ...

وكذلك في قوله :

لم أجد فيما مضى من حياتي لي عذراً في الهم أو في الشكاة

نجد نقصاً في الشطر الأول بسبب خفيف ... والصحيح أن يقول :

لم أجد فيما (قد) مضى من حياتي ... ...

وفي البيت :

ونصيب الشباب في العيش لا يف ضل في حسنه نصيب الشيب

خطأ مطبعي في كلمة (الشيب) وأصلها (المشيب)

كل ما سبق من الهنات الهينات مغفور ، ولكن نعتب على الشاعر قوله :

لا تلمني وانظر إلى تكويني فظنوني من كنهه ويقيني

حيث أتى (بالتشعيث) في العروض ، وهو آخر الشطر الأول ، مع علمه بأن التشعيث لا يدخل إلا في الضرب ، وإن كان من العلل غير اللازمة

وجواز دخول التشعيث ما جاء في قوله :

ومحيط الإنسان أكبر جان هو أو رحمة على الإنسان

حيث وقع في الضرب وهو آخر الشطر الثاني من البيت

وبعد ، فالقصيدة لا يغض من قيمتها ما سبق التنبيه إليه ، فالجوهر جوهر حيثما كان !

وفي الختام أهدي السلام لناظم الرباعيات ... مع التقدير .

(الزيتون) **عدنان أسعد**

إلى الأستاذ علي الطنطاوي :

أضع بين يدي الأستاذ هذا التعليق على كلمته التي عرض فيها لديوان « الصيدح » :

١ — ذكر الأستاذ الكبير ديواني في معرض النقد ، ولم يذكر وجه النقد أو أسبابه .

٢ — عرض لهذا الديوان بعد مرور ثماني سنوات من صدوره ، أي بعد أن أصبح المؤلف نفسه غير راض عنه ، لأنه من شعر الصبا ، فقد وضع الشعر منذ أحد عشر عاما ، حين كان المؤلف في التاسعة عشرة طالباً يؤدي امتحان « البكالوريا » .

٣ — وبرغم هذا فإن الدوائر الأدبية تقبلته قبولا حسناً . وإني أتحدى الأستاذ أن يقتبس من شعر الديوان ما لا يدل على صدق التعبير ، أو لا يصدر مثله عن شعور أو لا يتفق مع القاعدة .

٤ — إن النقد لا يسوءني ، وحبذا لو بصرني ناقد بالخطأ فأتجنبه ، أما التجني من غير دليل ، فإني أعده تحاملا من غير مبرر ؛ وأنا أعرف أن الأستاذ ليس بشاعر ، ومع أن هذا لا يمنع من تمكنه من النقد ، إلا أني أحسب أنه لو كان يقول الشعر لتذوق حلاوته في هذا الديوان .

٥ — إن لي أسوة في غيري من الشعراء المبرزين ، لأتعزى ، فقد طلع على الناس الأستاذ علي محمود طه ، والدكتور إبراهيم ناجي بديوانيهما سنة ١٩٣٣ ، فسلط عليهما النقاد ألسنة حداداً ، وقال الدكتور طه حسين لأحدهما في ختام نقده : لا أكتمك يا سيدي الدكتور أنك لست على شيء ! وقال الأستاذ سيد قطب : نظرت في الكتاب الأول فإذا هو تافه كله أغلاط ، لا يستحق أن ينظر فيه ؛ كانت حملة شديدة لم ينقذهما منها أو ينصفهما فيها إلا أستاذنا الكبير أحمد حسن الزيات . حتى دارت الأيام فإذا الشاعران ملء الأسماع والقلوب ، لا يقولان إلا المعجب المطرب .

والسلام على الأستاذ الطنطاوي « الكاتب » الحصيف المتمكن الذي أجله .

(القاهرة) **خليل جرجس خليل**



إيــلو . . . !

للأســتاذ عبد الحق فاضل

... إيلو ، أو إيلا ، أو إيلي ، أو إيلين ، أو ما تشاء من أسماء التحبب والتدليل . ولكن « اليزا » هو اسمها الصحيح الذي سماها به أبواها وعمداها به في الكنيسة .

جميلة في غاية الجمال . وذكية جداً ، ولبقة جداً .

لها عينان براقتان ، وفم صغير رقيق الشفتين يلذ لك أن تتابع بعينك تثنيهما وتلويهما حين تتحدث اليك ، وأن تراقب بأذنك تكسر الألفاظ عليهما في عذوبة ورشاقة ودلال ... بارعة في تصريف الأحاديث بلباقة نادرة وظرف أخاذ . وهي إذا تحدثت اليك عبرت لك عن مرادها بكل جوارحها — بعذوبة صوتها ، وإشارات يديها ، وحركات رأسها ، وتثني جسمها الغض ولحاظ عينيها اللامعتين . فجسمها كله يتكلم وكله يبتسم ، حتى ليخيل اليك أن ثوبها وزينتها أيضاً وسيلة عندها من وسائل التعبير ! فأنت لهذا مضطر إلى الإصغاء اليها بكل جوارحك أيضاً ، والافتتان بمحاسنها بكل قلبك وعقلك جميعاً .

لعوب طروب لها مراح العصفور ونشاطه ، وودود ظريفة تحملك على الإعجاب بها والهيام بكل وسيلة . فهي لذلك معتدة بنفسها ، تعرف قيمة جمالها وسحرها ، وهي لذلك أيضاً تعنى بأناقة ثوبها وزينتها ما وسعتها العناية .

لم أرها ! ... ولكن أمها هي التي حدثتني عنها وسردت علي قصة مأساتها المحزنة وفاجعة موتها قبل أن تتم الخامسة من عمرها عماً وكمداً ... فهي طفلة صغيرة كما ترى ! ولكن ذلك لم يمنعها أن تكون غاية في الجمال ؛ ولا أن تكون ذكية جداً ولبقة جداً ولا أن تكون زينة البيت وريحانته ، ومتعة الأهل والأصدقاء والزائرين ، ولا أن تكون مدركة لذلك كله شاعرة بقيمتها ، ومكانتها في كل قلب ، معتدة بنفسها مزهوة بجمالها ، معنية ما وسعتها العناية بأن تكون خليقة بكل هذا الإعجاب وكل هذا التقدير ، طامعة في المزيد . فقد كانت أبداً تخلق حول نفسها جواً صافياً من المرح والسرور ، ولا تطيق أن ترى عابساً أو حزيناً أو شخصاً منصرفاً عنها إلا بذلت جهدها لإخراجه من صمته وإدخال السرور على قلبه ولفت نظره إليها . فما يلبث ، مهما كان مهموماً أو بليداً ، أن يجاريها ما استطاع ويسر ما وسعه السرور ويضحك ما واتاه الضحك ، ويتخفف من همومه ولو إلى حين .

على أنها لم تكن تدرك أنها طفلة ! فكانت تحاكي الكبار وتقلدهم فيما يصدر عنهم من قول أو فعل أو إشارة . ومن بوادر ذلك مساعدة أمها في أعمال البيت والقيام على مراقبة نظافته والعناية بشؤونه ! ومن ذلك أيضاً أنها ما كانت تبخل على أحد بالنصيحة وإمداده بالرأي الصائب في رفق العقلاء المجربين وتوددهم ودمائتهم .

وكان يشق عليها أن يوجه اليها انتقاد ، فيحمر وجهها ثم تحتال على الاعتذار فتحسن الاحتيال ، وتشفع عذرها بابتسامة خجول ، وتعد بألا تعود .

ولعل سر هذه الفتنة التي اختصت بها إيلو أو إيلا أو إيلين هو هذا التعقل والتوقر المكتسبان بتقليد الكبار ومحاكاتهم وهي بعد في بكور هذه الطفولة البريئة الجميلة ، المحبوبة بطبيعتها . فكان المزاج من الطفولة والنضوج ، وفيه هذا التوافق المصنوع والتناقض المطبوع ، سحراً خالباً غالباً تتفتح له القلوب بلا مقاومة ولا عناء .

كان حديث أمها في بدئه عادياً طبيعياً تتخلله الابتسامات ، ثم أخذ صوتها يكتئب ويرتعش ؛ ثم شرعت تروح عن نفسها بالتنهد والتحسر بين حين وحين كلما اقترب الحديث من آخره ، وكانت تزيدني رغبة في الانصات اليها هذه اللكنة الأرمنية الحلوة التي لم تقو على مغالبتها عشرون سنة أقامتها في بغداد بين زوج عراقي وجيرة عراقيين .

قالت :

« ... فلما بلغت ايلو عامها الرابع رزقت غلاماً كان شؤماً

على نفسه وشؤماً على أخته وعلينا . فقد مات بعد موت ايلو بأسبوعين ، بعد أن قضى عليها وأفسد صفو حياتنا . وكان أول عهدها به أنها رأت كتلة صارخة من اللحم تضطرب في المهد ، فدنت منه في حذر وأنعمت نظرها فيه ، وإذا طفل لم تره من قبل وصراخ لم تألفه في البيت . فرابها أمره وأوجست منه خيفة ، والتفتت إلى تقول :

ماما ... ما هذا ؟ ! فقلت لها : إنه أخوك وديع . فقالت : أخي ! ولم يصيح هكذا ؟ إني لا أحبه !

إنها لا تحبه ... كلمة سبقت منها كأنما ألهمتها إلهاماً قبل أن تعرف خطرها أو تدرك سببها أو تعلم ما سيكون لها في حياتها وموتها من شأن . وقد زادتها الأيام بغضاً له كلما رأت أن له عندنا أهمية أو قيمة ، أو وجدتنا نكترث له أو نعنى بشؤونه . فهي يشق عليها أن تجدنا نصرف عنها ولو جزءاً من عنايتنا ورعايتنا إلى أخيها وديع أو أي مخلوق سواه ، وهي تفهم من ذلك أننا نزدريها ونراها غير خليقة بالاستئثار بكل حبنا وعنايتنا .

وعبثاً كنا نحاول — أبوها وأنا — إقناعها بأن لها المنزلة الأولى وأنها وحدها الأثيرة عندنا ، وإننا لا نحفل وديعاً إلا رأفة به ، وإننا سنتخلص منه يوماً ما ونريحها ونريح أنفسنا منه . وكنا نتظاهر معها باحتقاره ونجاريها في تعداد عيوبه ومثالبه . وكنت أتحاشى أنا إرضاعه أو مداعبته أمامها ، ولكنها كانت تراقبني فتراني أحياناً متلبسة بتقبيله أو ملاعبته فتعاتبني بنظرة أبية وتنصرف ، كأنها تقول : إنكم تخدعونني !

قالت لي يوماً : ماما ... ما ذا تصنعون بهذه الخليقة الحقيرة ؟ إنه مجنون يبكي ويصرخ بلا سبب ! وقذر جداً . يحدث في ثيابه وفراشه ونفسي تشمئز منه ! وليست فيه فائدة لنا . أنى أحسن منه ، وعاقلة ونظيفة ! فلماذا لا تلقونه في الطريق ؟ ...

فقلت لها : لا يا بنيتي ، إنه صغير مسكين ، ومريض . ولهذا ترينه يبكي .

فقالت : لا يا ماما . إنه يكذب ! إنه لا يبكي بل يصرخ فقط ، ولا تسيل من عينه دمعة واحدة ! فلو ألقيته في الطريق للكلاب لاسترحت منه ، فإنه يتعبك كثيراً وأخاف عليك أن تمرضي !

فأجبتها لو ألقيناه في الطريق يا ايلو لحق علينا غضب المسيح فلنشفق عليه إكراماً للمسيح حتى يشفى من علته — فنتركه وشأنه . ما قولك في هذا يا ايلو ؟

فقالت : ولماذا يغضب المسيح ... أترينه يحب المجانين والقذرين ... ؟

فقلت : لا ، ولكنه يحب الضعفاء والمرضى ، ويوصينا بالعناية بهم والعطف على بؤسهم .

فقالت مغضبة : لماذا يا ماما لا يحب المسيح الأصحاء النظاف والعقلاء ، ويؤثر عليهم الذين فراشهم منتن مثل وديع الكلب ؟ أليس المسيح جميلا وطيباً كما تقولون . إني أبغضه !

ورأت بعد ذلك أن الجدال والمنطق وحدهما لا يعودان عليها بفائدة ، فراحت تبرهن لنا ولمن يتصل بها وبنا عملياً على أنها كفء لكل تقدير وإكبار ، وأنها وحدها الجديرة بكل الإعجاب والاهتمام . فصارت تستيقظ مبكرة مع العصافير ، وتلقى بنظرة شاملة على البيت وتشرع بانتقاده وتصف فساد نظامه بخطاب موجز ، ثم تأخذ بترتيبه على رأيها ووضع كل شيء في محله . وتغسل أواني الشاي وتنصب المائدة قبل أن أشرع أنا بإعداد الشاي نفسه . ثم تأخذ بالمكنسة لتنظف الدار ! وتجشم نفسها من المشقة والنصب ما لا قبل لطفولتها به ، فأمنعها سدى وترفض أحياناً حتى أن أساعدها . وأنا أعلم فيم تشق على نفسها كل هذه المشقة وفيم تتكلف كل هذا العناء ، فتنفطر مرارتي من الحزن ...

ثم تعمد إلى نفسها فتفيها حظها من التزيين والتجميل ، وترتدي أنظف ثيابها وأجملها في عينيها ، وتجلس إلى المرآة تصفف شعرها وتمشطه حتى ترضى عن نفسها . فإذا جاءنا زائر خفت وبشت في وجهه ، وقد لحظت أنها ضمنت ثقتها بنا فصرفت عنايتها إلى الزائرين ... تسعى بين أيديهم وتسائلهم إن كانوا عطاشاً لتأتيهم بالماء ، وتقدم إليهم السكر لعل الشاي أقل سكراً مما يشتهون ، وما تفتأ تتودد إليهم وتعرض عليهم محاسنها وتباسطهم وتغني لهم وتستميلهم بمرحها ورشاقتها وفكاهتها حتى يأخذوها في الأحضان ويوسعوها ضماً وتقبيلا ، ويؤدوا لها حقها من المديح والإعجاب . فتتنهد وتنفض إليهم جملة حالها ... وتنكشف سريرتها فإذا كل هذا اللعب والمراح أشبه برقص الطائر الذبيح ...

تأخذ بانتقاد عدوها وديع ، وتنتقص أمامهم منه . وأصل عيوبه ومخازيه عندها أنه بكاء وقذر . وتشكو إليهم ظلامتها وبثها ، وتشكو إليهم أننا مع كل هذا نحبه وندلله ولا نضن

عليه بالعطف والإيثار . فتحكمهم بيننا وتطلب إليهم أن ينصفوها منا . فاذا حكموا لها ، وهم دائماً يفعلون ذلك ، نظرت إليّ في عتب ورجاء . وإذا أكدتُ لها أننا لا نباليه ولا نقيم له وزناً أطرقت في يأس وهزت رأسها الصغير كأنها لا تريد أن تقول لي في صراحة : إنك تكذبين يا ماما !

ولكنها مع كل ما تضمره لوديع من بغض وموجدة لم تحاول يوماً أن تؤذيه أو تمسه بسوء ، فقد كنت أرقبها إذا اختلت به مخافة أن تمتد إليه يدها البريئة بشر ، غير أنها لم تفعل من ذلك شيئاً ، وإنما كانت تكتفي بأن تحدجه بنظرات ساخطة حزينة ثم تنصرف عنه .

وكانت لنا جارة صديقة لم تُرزق ولداً ، اسمها ماري ، تصلنا بها قرابة بعيدة ومودة وثيقة . وكانت مشغوفة بحب إلبزا حتى ما تكاد تنقطع عن زيارتنا وقضاء شطر من نهارها عندنا قرب حبيبتها إيلين كما كان يحلو لها أن تسميها ، فقالت لها مرة :

أنظري يا أختي ماري ! إنهم لا يزالون يحبون هذا النجس وديعاً ، وقد رأيت ماما تقبله أمس ! وهي تسهر الليالي عليه وتخف إليه كلما بكى لترضعه وتهز أرجوحته النتنة ! أنا أكنس البيت كل يوم وأطوي ثياب بابا وأعين ماما ... ونظيفة وجميلة ! وهذا المجنون وديع الذي لا يكف عن الصياح قذر ... ورأسه صلعاء !

فلاطفتها ماري وأكدت لها أنها واهمة ، وأننا نحبها ونؤثرها ولا نقيس بها إنساناً . فقالت : لا يا أختي ، إنهم يخدعونني ويكذبون عليّ ... لو كنت مكانهم لأطعمته الكلاب أو أعطيته الشحاذين القذرين مثله .

فقالت لها ماري : اطمئني يا أختي إيلين . سنخلصك منه قريباً ، إنه قبيح بكاء لا خير فيه .

وأسرّت إلى ماري بعد ذلك أنها ستأخذ وديعاً عندها طيلة نهار الغد . ثم تزعم لإيلين أن كلب ماري ، وكان لها كلب عظيم الخلقة ، قد افترسه وأراحها منه لترى ما عساها تصنع أو تقول . وأخذته في اليوم التالي خلسة إلى دارها ، فدهشت إيلو ذلك النهار أنها لم تر وديعاً ولم تسمع له نأمة . ومضت إلى فراشه مرات عدة فلم تجده . فراحت تطوف البيت وتتحرى الغرف صامتة متلصصة لترى ماذا حل به فلم تفز بطائل . فاذا فرغت من التفتيش عادت إلى تدور حولي وتطيل النظر في وجهي لعلها تقرأ في أساريره ما يجلو لها الخبر اليقين ... فلما ضاقت ذرعاً بالصمت والكتمان ، سألتني :

— ماما ... أين وديع ؟ فقلت لها :

— وديع القذر ؟ ماذا تريدين منه يا إيلا ؟ ... فقالت :

— أين هو ؟ إنه ليس في البيت ! فأجبتها :

— مسكين ! لقد أكله كلب ماري .

— صحيح يا ماما ؟ هل أكله كله ؟ !

— نعم . التهمه عن آخره !

فتورد خداها وبرقت عيناها ، وصاحت :

— فلأقبلك إذن ! وألقت نفسها في حضني تغمر وجهي بقبلاتها ، وأخذت تضمني بشدة غريبة وهي تدس رأسها في صدري كأنما تريد أن تدخله في أضلاعي . فسالت دموعي على هذه الصغيرة المعذبة اللعوب . وخشيت وخامة العاقبة متى اطلعت على جلية الأمر ، فلم أك أقدر أن يصيبها كل هذا الفرح الجنوني البريء .

ثم تركتني وهرعت إلى الأرجوحة لتأخذ منها الفراش ، وبذلت جهداً عنيفاً حتى أخرجته فأمسكت من أحد أطرافه كأنما تحاذر أن تتنجس يدها منه ، وراحت تجره وراءها في صحن الدار . وصادف دخول أبيها في تلك اللحظة فأخذها بين ذراعيه وسألها ما تصنعين يا إيلي ؟ فقالت له :

— بابا ، لست تدري ! إن كلب ماري قد أكل وديعاً كله ، ولم يترك منه ذرة واحدة ! فلنرم فراشه في الطريق ، وأرجوحته أيضاً وثيابه . كلها قذرة ووديئة .

وما كادت تفلت من بين يديه وتأخذ بالفراش من جديد حتى دخلت علينا ماري وعلى ذراعها وديع وهي تقول :

— إنه بكّاء مزعج حقاً تخلصوني منه !

ولا تسل عما أصاب إيلو . فقد بهتت ووجمت ، واصفر وجهها ، وأفلت طرف الفراش من يدها . ولم تعد تقوى على الوقوف فقعدت من فورها على الأرض مستندة إلى الجدار . ثم انتبذت ناحية منزوية من تلك الغرفة (وأشارت بيدها إلى الغرفة التي عنتها) في ذلك الركن . وطفقت تبكي بكاء متصلا أبكانا نحن الكبار ، إذ لم يستطع كل بغضها لوديع أن يسيل لها دمعة من قبل ، ولم تعودنا يوما وهي الطروب اللعوب أن نراها تبكي أو تشكو من شيء ، فقد كانت أبداً كما قلت لك لاعبة ضاحكة

السن نشيطة خفيفة الظل والحركة — تكظم الغيظ وتدارى أحزان قلبها الغض باللعب والمزاح . ولكنها شعرت هذه المرة أنها أهينت فى صميم كبريائها . وقد قالت لنا ونحن نحاول عبثاً أن نسترضيها ونمنيها الوعود : إنكم لم تعودوا تحبون إيلو ... تزدرونها وتضحكون عليها .

وظلت تبكى بلا انقطاع رغم ما بذلنا من جهود ، وظل جسدها يضطرب ويهتز بين أيدينا من الانتحاب والشهيق كالسعفة تعبث بها ريح هوجاء .

ولم تذق عشاء تلك الليلة ، ولا أحسبها نامت فقد كانت تتململ فى فراشها تململ السليم ، فاذا ناديتها أودنوت منها أغمضت جفنيها وتناومت ... ولم تنهض على عادتها باكرة فى الصباح ، ولم أشأ أن أوقظها حتى علا النهار ، فقامت متثاقلة مسترخية محمرة العينين منتفخة الأجفان من السهر والبكاء ، ولم تعن بالبيت أو تلق بالا إلى نظامه أونظافته ، ولاحفلت زينتها ، أومرآتها ، ولا غيرت ثوباً أو مشطت شعراً ، ولا رحبت بزائر ولا صديق . وخلا المنزل من لعبها وقفزها وأوحش منذ ذلك اليوم . وكان كل ما تفعله أن تقابلنى وتجلس أمامى فى المطبخ أو فى الصحن أو فى الغرفة ، خافضة الرأس ساكنة الأطراف مغرقة فى الوجوم والتفكير مستسلمة إلى الحزن الصامت واليأس الأليم . وأخذ جسمها يذوى ويذوب كالشمعة المحترقة يوماً بعد يوم ، وغاضت ابتساماتها وخبا ضوؤها وخفت صوتها . فراعنا الأمر وحيرنا ماذا نفعل . ولم يكن فى عزمنا أن نتخلى عن وديع أو نعهد به إلى مرضع أو مربية فقد كان أثيراً عندنا حقاً إذ لم يكن لنا ولد ذكر سواه ، ولم يكن بيدنا مالا ننفق منه على المربيات والحواضن لو أردنا ذلك . وحار فى أمرها الطبيب وكثر ما تناولته من الأدوية والعقاقير صابرة طيعة لا تتمرد ولا تقاوم ، وقد ذقت مرة دواء كانت تشربه فوجدته مراً حاداً كريهاً تعافه النفس ؛ وعجبت كيف كانت تشربه فى طوعية واستسلام فارقته وأعفيتها من شربه ، كأنها تنازلت عن إرادتها إذ لم تعد تنتفع بها ، أو رفضتها ورمت بها فى وجهنا . فلم تبد رغبة فى شىء أو تتذمر من أمر . حتى أن مارى اقترحت علينا مرة أن تأخذها عندها لتعتنى بها وتقوم على راحتها وتسليتها وتتبناها فقالت نعم . فسألتها أنا هل ترغبين حقاً أن تمضى مع مارى إلى دارها ؟ فقالت نعم . فقلت أم تؤثرين البقاء عندنا ؟ فلم تزد على أن قالت نعم ! فنظر بعضنا فى وجوه بعض قانطين حائرين .

ولبثت عند مارى أياماً لم تزد حالها فيها إلا سوءاً على سوء ، فلم نجد بداً من استرجاعها . وشرع أبوها يطوف بها المتنزهات ويقتنى لها الملاهى والألاعيب والحلوى أصنافاً وضروباً ، ولا يألو جهداً فى تسليتها والترويح عنها ، فى غير جدوى .

ومالى أطيل عليك وأثقل على نفسى ونفسك ... إن ذكرى أيامها الأخيرة لتحز فى فؤادى كالمدية الكليل ، وتشب فى ضلوعى مثل النار ... وجدناها ذات صباح جثة هامدة فى فراشها شاخصة إلى الأرجوحة ببصرها كما يشخص القتيل ببصره إلى القاتل ... » .

واختنق صوتها بالبكاء وانهمرت من عينيها الدموع . فلم أتمالك أن أخرج منديلى وأجفف به عينى الدامعتين .

هذه هى قصة إيلو أو إيلا أو إيلين أو ما تشاء ... كما سمعتها من أمها . لقد كانت ذات نفس كبيرة وحس دقيق رهيف ، جاوزت حد الطفولة فى الشعور بالعظمة والكبرياء ... غيوراً يهمها أن تكون ملحوظة أبداً معنياً بها لا ينازعها فى ذلك منازع ولا يزاحمها على منزلتها عند أبويها إنسان . فماتت شهيدة بطلة بعد أن ناضلت وجاهدت ، وأبلت أحسن البلاء ؛ وحيدة لا معين لها ولا نصير ، شجاعة صابرة لا يعروها ضعف ولا جزع ، ولا ينال من بشاشتها أو يخرجها عن سجيتها خور ولا قنوط ... حتى خذلها الأهل وعز النصير ، فأيقنت بالفشل وأدركت أن جهودها ضائعة لا محالة ، وأنهم لم ينصفوها ويقدروها قدرها على حال . فألقت سلاحها وانسحبت من الميدان فى إباء وحسرة وسكون ، وأسلمت قلبها الغض إلى الأحزان ، وفوضت أمرها إلى الله . وهكذا انتحرت تلك الكرامة البريئة المؤذاة !

ومع أنى لم أرها ... ثم مع أنى قد مضى على سماعى نبأ مأساتها عام أو يزيد ، فانى ما زلت تعودنى ذكراها من آن لآن فأحزن عليها حزنى على القريب والحبيب . لكأننى رأيتها وعرفتها ولاعبتها وأحببتها كل الحب وكلفت بها أيما كلف ، ثم ... كأننى فقدتها الساعة